هاني النجار

للكبار فقط

18+

عالم

قراطيس .. قراطيس

عالم قراطيس قراطيس

دردشة ساخرة للكبار فقط

هاني النجار

عالم قراطيس قراطيس

دردشة ساخرة للكبار فقط

هاني النجار

إصدار: ٢٠١٥

التصنيف: أدب ساخر

تصميم الغلاف والإخراج الفني: هاني النجار

لوحة الغلاف: من أعمال الفنان عمرو فهمي

مكتبة لوتس الإلكترونية

http://lotusbookshop.blogspot.com

إهداء

إلى كل من يقرأ العربية، ويفهمها، ويتحدث بها حتى لو كان بيقول ساموعليكو . . تعاشب شاي . . أي والله زمبقولك كده .

هذا الكتاب . .

هو مجرد دردشة مصرية استناداً إلى فرضية أن الله تعالى خلق المصريون من عجينة غير تلك التي خلق منها باقي شعوب الأرض، فلهم قدرة عجيبة على خلق الضحكات وسط المآسي والهموم، الدنيا في نظرهم خبر خير، والقفشة دائماً حكمت، ربما لأنهم تعلموا من تاريخهم الطويل وصراعهم مع قوى القهر والإظلام أن أفضل سلاح لمواجهة هذه القوى هو النكتة والتهكم حتى على أخطائهم التي ارتكبوها بوعي أو بغير وعي، فشوارع مصر هي عبارة عن مسرح ساخر مفتوح

– هايد بارك – على مدار الساعة، في وسائل المواصلات العامة، في الشوارع، وعلى المقاهي والأرصفة تسمع دائماً حوار سياسي، أو اجتماعي، أو ديني، أو أخلاقي محتدم الوطيس بين مؤيد ومعارض، أو مؤيد ومؤيد، أو معارض ومعارض، كل منهم هدفه المصلحة العامة وفقاً لوجهة نظره الخاصة.

هذا الكتاب هو محاولة.. مجرد محاولة لعرض نواقصنا وسلبياتنا بغية التحذير من الانسياق وراء تيار جارف من النمطية التي تحولنا جميعا إلى شعب من القراطيس.

هذا الكتاب هو كتابي الثاني، وهو مثل سابقه نسخة إلكترونية لك الحق بالتصرف بها كيفما شئت، لك مطلق الحرية بإعادة نشرها أو الاقتباس منها لكن مع الاحتفاظ

بالحق الأدبي لصاحبه، وهذه مسئولية أخلاقية وليست قانونية، فجميع الحقوق الأدبية محفوظة للمؤلف بموجب رخصة المشاع الإبداعي، أما الحقوق المادية فهذا الكتاب نسخة مجانية، ليس لأني رجل كريم ولكن لأني لا أملك المال، أو المحسوبية، أو المعارف للنشر الورقي، ودور النشر تشترط أن يكون للكاتب جمهور من القراء.. فكيف يكون له جمهور بدون نشر؟ أنا شخصياً مش عارف.

المهم خليك أنت جدع وأعمل نفسك مصدق إني رجل كريم قدم كتابه ومجهود شهور مجاناً، وأنا هأعمل نفسي مصدق أنك قرأته، ولو يعني مثلاً، كده مثلاً، وبأقول مثلاً كانت لك رغبة في الحصول على نسخة ورقية من هذا الكتاب تقدر تطلبه بشكل مباشر من خلال قنوات الاتصال في آخر

صفحة، وثمنه هو تكلفة طباعته، ١٥ جنيه فقط لا غير، ولو مش عاوز خلاص براحتك الكتاب قدامك أهو مجاني.. وعشانا عليك يا رب.

هاني النجار

القاهرة - ديسمبر ٢٠١٥

١
أدخل برجلك اليمين

زمان كان جدي أو جدك لمّا يشعر بصداع يجري على حلاق الصحة يخبطه موسين جنب عينه، أو يدق له عصفورة، ولو النظر دغشش شويتين يبقى لابد من الششم، أو زيت القنديل، ولو خسَّع شوية في المسائل إياها.. تبقى شوربة كوارع ترجّع الشيخ إلى صباه.

أما لو كان الموضوع أخطر من ذلك فيظهر العطار بالحبهان، والجاوي، والمستكة، وورق الحنة، وزيت البرافين، وعين العفريت.. وودن الجن، وشنب المارد.. الخ.. الخ.. الخ، والغريب أنه رغم هذه الوصفات الشعبية والعلاجات البدائية

كانت الناس في صحة وعافية أفضل منا بعشرات المرات، وأعمارهم أطول، كانوا يأكلون من طرح الأرض مباشرة.. لا غسيل ولا تعقيم ولا دياولو، يشربون من الترع والقنوات فلا يشغل بالهم تليف الكبد، أو فيروس سي، ولا يعرفون مرض اسمه ارتفاع الضغط، أو السرطان، أو قرحة المعدة.

لكن لو الأمر كان أخطر وأخطر، إذن فلا مفر من الطبيب، وأعتقد أن أيامها لم يكن في مصر سوى طبيب واحد أسمه (وليام)، لأني عندما كنت طفلاً كنت أسمع سيدة عجوز تدعي على ابنها كلما أخذ منها ربما خمسة قروش دون رغبتها فتقول: «تصرفهم عند وليام بحق اليوم المفترج».

في ذلك الزمن كان المصريون متدينون بالفطرة، يعرفون الفرق بين الحرام والحلال، والعيب والمسموح بلا تشدد أو تعصب أو مغالاة في الدين، وكان الصغير يتربى على احترام الكبير، فكل رجل كبير هو والده أو أخوه الأكبر، وكل امرأة هي والدته أو أخته.. أو خالته فلانه.

لكن الزمن تغير، والأخلاق تغيرت، وأفكار الناس تغيرت، لم يبق من تدين المصريون سوى الأكل باليد اليمنى، ودخول الحمام بالقدم اليسرى اللهم إلا من رحم ربي، وشمل التطور نواحي الحياة كلها وخصوصاً الطب إلا في المحروسة، فيبدو أن التطور فيها يختلف مفهومه عن أي دولة في العالم، واحتمال أن تفهم الناس الحقائق يقترب من احتمال ظهور الغول أو العنقاء.

فلو كنت ماراً بسور الأزبكية، أو بجوار مسجد السيدة زينب، أو حتى بشارع النبي دنيال في الإسكندرية من جهة محطة مصر فلابد وأنك سوف ترى مع الباعة على الرصيف ابتكاراً مصرياً لم يتوصل إليه أطباء العالم ولا حتى علماء الذرة في أمريكا، وبرع المصريون في صناعته بطريقة لا تسمح لكبريات الشركات العالمية بمجرد التفكير في المنافسة، هذا بالطبع بعدما نجحت مصر في صناعة إبر بوابير الجاز (بعدما انتهى عصر وابور الجاز طبعاً)، والأستيكة الرائعة التي كانت

تحوّل الورقة بقدرة قادر من اللون الأبيض إلى اللون الأسود، والكراسة المدرسية التي لم يختلف ورقها عن ورق اللحمة، ويوم جاء الريّان وعمل الغلاف الدوبلكس والورق الفاخر.. رموه في السجن، وطلّعوه من هدومه.

إنه القرطاس السحري.. القرطاس العجيب.. فيه شفاء لكل داء لاسيما وأن البائع دائماً يقول لك بعدما تشتريه وهو يمشط لحيته بأصابعه: الشفاء من عند الله، ولا يغفل أن يُحيط المعلوم بهالة من الإيحاء كأن يُلعلع بجوار بضاعته شريط للشيخ محمد حسّان، أو يُشعل أعواد البخور لتعبّق المكان. تجد القرطاس ملفوفاً بطريقة خاصة أشبه بحجاب الشيخة مستكة، وطبعاً لم يغفل التطور التكنولوجي فتجده في كيس بلاستيك شفاف ومعه كتالوج الاستخدام واسم المرض الذي يشفيه بإذن الله.. ما هو كله بإذن الله.

السكر، الضغط، الدوالي، القرحة، الصدفية، الثعلبة،..

والنمسة كمان زوجة النمس. علاج تساقط الشعر، علاج حب الشباب، تفتيح البشرة.. تفتيح الدماغ. تقوية الأظافر، تصغير الودان، تكبير الصدر، نفخ الشفايف، نفخ الـ.... والمشكلة أن الناس تجري تشترى وهم متأكدين أن بداخل القرطاس شوية (فيه) على شويتين (مفيش).. يمكن ورق شجر ناشف، على أي حاجة مبشورة، على كثير من هجص ملوش أي فائدة أو ضرر.

ولمّا بدأت المعجزة تتحقق وبدأ الناس تفهم بنسبة واحد من الألف في المائة؛ تطور القرطاس كالفيروس الذي يغيّر من شكله حتى يتخفى عن كرات الدم البيضاء، سموه حجامة، وسموه الطب البديل، رغم أن القرطاس قرطاس حتى لو لفوه في ورق سيلوفان.. هو قرطاس.

ولمّا أقبل عليه الناس تحت مسماه الجديد التقطت الفكرة شركات الاستثمار الحديث (شركات أخطف وأجري)، ولمَ لا؟ وكل ما يكلفهم هو موديل صاروخ أرض جو تظهر في

إعلان التليفزيون وهي لابسة من غير هدوم وتقول: «نحن ملوك الجمال في الشرق الأوسط». طبعاً لأنها تعرض قرطاس لإزالة الترهلات أو الشعر الزائد، أو لتثبيت الرموش أو لتطليع الروح، وبعدها يأتي شيخ لحيته مترين يُعلن عن قرطاس لعلاج آلام المفاصل أو النقرس أو تصلب الشرايين، أو يأتي دكتور يُعلن عن قرطاس لعلاج العجز الجنسي (دا على أساس أن شوربة الكوارع مش نافعة).

ورغم كل هذا، عندما ظهر على الشاشات ضابط طبيب عبقري باختراع أكثر عبقرية يقوم بتشخيص أقوى الأمراض وعلاجها انفجر المصريون في وجهه ضحكاً وسخرية من هذا المجنون وجهازه الذي أطلقوا عليه جهاز الكفتة[1].

هذا الرجل لم يكن مجنوناً ولا محتالاً، ولكنه التطور الطبيعي في مراحل حياة القرطاس، القرطاس الذي بدأ بعلاج السكر

(١) في فبراير سنة ٢٠١٤ أعلن لواء بالجيش المصري اسمه إبراهيم عبد العاطي عن اختراع جهاز يقوم بتشخيص وعلاج فايرس سي وفايرس الإيدز، ومر الجهاز بمراحل اختبار كثيرة حتى ثبت عدم جدية الاختراع وطالبت نقابة الأطباء بعد عام واحد أي في فبراير ٢٠١٥ بالاعتذار للشعب عن «جهاز الكفتة».

والضغط والدوالى كان لابد وأن يتطور إلى جهاز يعالج الإيدز، أي أن المرض العُـضال الذي أنفقت أوروبا وأمريكا مليارات الدولارات على مدار عشرات السنين لعلاجه وفشلوا، جاء ضابط مصري بجهاز عبارة عن ماكينة صرّاف آلي وإريال تلفزيون وعالجه.

أيضاً ليست هذه هي المشكلة، المشكلة أن الناس تستقبل الفكرة في البداية بريبة، ومع التكرار تصدقها، وتؤمن بها، وتدقها في عقولها بمسمار صلب وتدافع عنها وتنفخ فيها لدرجة جعلت من الخزعبلات والتُرّهات حقائق يؤمن بها البعض ويدافع عنها البعض وتُشجع البعض على النصب والاحتيال والتلاعب بالعقول، حتى صفحات التواصل الاجتماعي أصبحت مليئة بقراطيس إلكترونية..

قرطاس لعلاج رائحة الفم، للقضاء على النمل والناموس، للتخلص من الكرش، ووصفات للحياة السعيدة والعيشة الهنية واللي عيشينها، ومكسب القرطاس في جيب صاحب

الموقع الإلكتروني الذي لا يختلف عن صاحب (الفَرشَ) بسور الأزبكية، أو بجوار مسجد السيدة زينب، أو حتى بشارع النبي دنيال في الإسكندرية من جهة محطة مصر، الفرق أنه نقل (الفَرشَ) للفضاء الإلكتروني لكنه التزم بنفس التحابيش، يعني يُحيط المعلوم بهالة من الإيحاء من أمثال: «معجزة لن تصدقها»، أو «يقول الشيخ فلان أو الشيخ عيلان، أو الشيخ ترتان كذا وكذا»، أو «وجدت في مخطوط نادر وقديم وصفة كيت وكيت لعلاج المرض الفلاني أو العيلاني». وعلى شاشة التليفزيون ماسورة قنوات فضائية ضاربة، قنوات لا لها أول ولا لها آخر وكلها تقول (لوبيا يا فجل لوبيا)، عليها إعلانات الفياجرا أكثر من إعلانات بيبسي، لكن ولأن الفياجرا أصبحت قرطاس قديم، كان لابد من ظهور قراطيس جديدة متطورة تواكب العصر.. تايجر كينج، العلبة الذهبية، والفنكوش بجنيه واحد لكل واحد.

والناس ما بتصدق وتجري تشتري علشان تجيب عيال ونُعيد

تمثيل فيلم (عالم عيال عيال) على أرض الواقع، وتتملى الدنيا قراطيس صغيرة علشان يبقى عالم قراطيس قراطيس.

انزل الشارع وتعالى نحسب كم قرطاس ماشي، تعالى نتابع حياة القرطاس اللي اشترى القرطاس.. ومن قرطاس لقرطاس يا قلبي لا تحزن.

• • •

مبروك جالك قرطاس

هناك موروث شعبي طويل وعريض نتجاهله دائماً حين نلعن سلسفيل أولادنا على ضحالة فكرهم، وتفاهتهم، وسطحيتهم، حين نراهم منسجمين مع أغاني المهرجانات الشعبية، منسحبين إلى عالم ثنائي الأبعاد بمفردات عجيبة، وتعبيرات أعجب، حين نجدهم يسخرون منا إذا حدثناهم عن الوطنية والانتماء، حين لا نرى في يد أحدهم كتاباً مفيداً أو غير مفيد.. جيل تافه معجون بالخيبة والويبة.

هكذا نصفهم متجاهلين ذلك الموروث الشعبي الذي يخبرنا بأن «ابن الوز عوّام»، و«لو أبوك البصل وأمك التوم.. تجيب

منين الريحة الحلوة يا مشئوم؟»، و«أكفي القِدرة على فُمها تطلع البنت لأمها».. وغيرها من الأمثال التي تقول بمنتهى الصراحة والوضوح أنك إذا كنت تلوم على أولادك تفاهتهم وسطحيتهم تذكر أنك في السبعينيات والثمانينيات كنت تسمع أحمد عدوية، وفلوسك ضائعة على الورق الملون الذي كنت تكتب عليه جوابات الغرام لبنت الجيران والتي هي غالباً ليست أم أولادك، وأن أقصى كتاب مفيد كنت تقرأه هو مجلة ميكي أو سمير أو طبيبك الخاص.

مراحل تعليمك بدأت بـ زَرَعَ وحَصَدَ، وأمل وعمر، وأمي وأبي، والقطة بسبس، ثم مستر بيل، وسام كروك، ثم كيمياء وفيزياء وأحياء وتفاضل وتكامل، ومرت بـ كراكشنجي دبح كبشه، وانتهت بـ يا ناس أنا دوبت في دباديبو.. عمرك سألت نفسك يعني إيه دباديبو؟

مراحل ثقافتك بدأت بـ رجل المستحيل، والشياطين الـ١٣، وروايات عبير، ثم مازنجر، وكابتن ماجد.. وهذا الأخير ربما يكون الوحيد الذي علمك الصبر حين كانت الكرة تستغرق

اسبوعاً كاملاً في الهواء كي تصل من لاعب لآخر وأنت منتظر بشوق ولهفة حتى تعرف هل وصلت لزميل كابتن ماجد في الفريق أم خطفها (باسم) في الطريق.[٢]

باختصار مراحل تعليمك بدأت بسخافات وكلام فارغ، ومراحل ثقافتك بدأت بخرافات وخزعبلات وأفكار خيالية فصلتك عن الواقع، وانتهت بالصبر ثلاثين عاماً على نظام سياسي مستبد ونفعي وقمعي وفاشل في انتظار حلم الاستقرار والرخاء تماماً مثل انتظار كره كابتن ماجد في الهواء.

هل تذكر رواية «هارد تايمز» التي درستها في المرحلة الثانوية؟، أو رواية «كونت دي مونت كريستو»؟ أو رواية «رحلة إلى مركز الأرض»؟ أو أي رواية درستها في مراحل تعليمك؟

غالباً أنت لا تذكر شيء من مواد الدراسة لكنك تذكر الرواية جيداً، تذكر أحداثها وشخصياتها وتفاصيلها – هذا بافتراض أنك كنت تحضر حصص اللغة الإنجليزي ولا تهرب

---

(٢) رجل المستحيل، والشياطين الـ ١٣، وروايات عبير جميعها كانت تصدر ضمن سلسلة روايات مصرية للجيب، أما مازنجر وكابتن ماجد فهما مسلسلات كارتونية كانت تُعرض في التليفزيون المصري.

من فوق سور المدرسة – لأن هذه اسمها ثقافة، والثقافة مثلما قال أينشتاين: «هي ما يبقى بعد أن تنسى كل ما تعلمته في المدرسة»، لكن أغلبنا اهتم بمواد الدراسة والمناهج العقيمة التي خرجنا منها يا مولاي كما خلقتني، مجرد ورقة في درج مكتب ولو رغبت العمل بها يكون الجواب: «فوت علينا بكره». أغلبنا وقع في غلطة عمره.. نسي أن التعليم شيء والعلم والثقافة شيء مختلف، أغلبنا اشترى التعليم، اشترى دماغه فباع دماغه وقعد يولول «أنا اللي أستاهل كل اللي يجرالي».

والغريب أن تحارب وتُقاتل لكي يقع ابنك في نفس الغلطة، ويكرر نفس الأخطاء، ولـمّا الفاس تقع في الراس وتجد الولد أبيض يا ورد دماغه فاضية بيصفر فيها الريح، ترجع تولول تاني وتقول شقى عمري ضاع.. والملاحة والملاحة.

قالوا أن الهبلة عمرها ما تجيب دكتور، ولو حصلت معجزة وجابت دكتور الناس هاتقوله يا ابن الهبلة.. ابن الهبلة راح.. ابن الهبلة جاي، يعني تجيبها كده، تجيلها كده، هي كده،

أنت عملتها كده، أنت بنفسك لفيت القرطاس الصغير واللي لمّا كبر أصبح بالصورة التي تراها.. خيبة بالويبة، لكن لا تستغرب لأنها سلسلة وحصاد أجيال، جدك زرع أبوك وأبوك زرعك وأنت زرعت ابنك وابنك سوف يزرع ابنه، كلكم استخدمتم نفس البذور، نفس الأرض، نفس المياة كيف تكون النتائج مختلفة؟

تعالى نفكر سوا..

أبو فصاد طالع عين أهله علشان يجيب أكل العيال، يشتغل الصبح وبعد الضهر ويرجع بالليل مقتول يا دوب يلحق ياكل لقمة وينام على وشه طب.. طب، ولو ناوي تسأل أمال فصاد وأخته فصادة إزاي جاؤا للدنيا؟ أقولك.. في الأعياد الرسمية، أو في أيام حظر التجوال.

والست أم فصاد هي كمان طول النهار شبه النحلة، ترجع من الشغل لشغل البيت والمطبخ والكنس والمسح، يعني لا أبو فصاد ولا أم فصاد عندهم وقت لفصاد أو فصادة.

فصاد يكبر وهو شايف الدنيا من شاشة التليفزيون، ويجري

يقلد (عبده موته) ويصبح مثله الأعلى في الحياة، يشرب سجاير، يضرب مخدرات، يعاكس بنات الناس في الشوارع أو يتحرش بيهم لأن مفيش حد كان فاضي له غير الشارع والإعلام.. يعني فساد في فساد.

وفصادة تكبر وهي شايفة الدنيا من نفس الشاشة، وتجري على الفيس بوك علشان تصبح (كيم كاردشيان) أمثولتها العالية.. العالية أوي، وتختصر نفسها في كتلة لحم رخيص لأنها هي كمان مفيش حد كان فاضي لها غير الفيس بوك الرجيم على رأي أسامة منير.

والنتيجة كما ترى في ملامح الشارع المصري.. توك توك، وبنت لابسة من غير هدوم، أو ترتدي عباءة سوداء ملعونة تجسم كل تضاريس جسمها، أو بنطون جينز يؤدي نفس المهمة، وشاب عاطل لا شغلة ولا مشغلة غير المخدرات والبرشام، دماغه فاضية ومقلوبة، ولو سألته إيه هي عاصمة مصر يجاوبك بكل ثقة: (إمبابة)..

باختصار إياك تلوم أولادك لأنك السبب في حالهم، في ضحاتهم، في سطحيتهم، والأسوأ في أخلاقهم، كيف تنتظر أن يحترم ابنك الرجل الكبير وأول درس علمته له «تف على عمو؟»، كيف تنتظر أن يحافظ على بنات الناس وأنت علمته بنفسك – سواء بقصد أو بدون قصد – أن الرجولة هي الفحولة ولو بالكلام، أو على الأقل علمته أن هذا عيب ولم تعلمه أنه حرام، أنت بنفسك من علمه كيف يصبح قرطاس، قرطاس في المهد، قرطاس في مراحل التعليم، قرطاس حتى عندما يكبر ويتزوج ويخلّف علشان نقوله: مبروك جالك قرطاس صغير.. يتربى في عزك.

• • •

حصوة ملح

اسمع كلام أبوك.. أسمع كلام أمك..

أسمع كلام خالتك، وعمتك، وعمك، وجوز بنت عم ابن أخو خالك..

وهذه هي أول كلمات تدخل أذن البيبي مع خبط ورزع الهون اللي بيسبب له طرش مبكر ما شاء الله، ويكبر البيبي صوته عالى، مسكين ما هو مش سامع بسبب الطرش المبكر، يكبر البيبي وفي عقله الباطن جملة.. أسمع كلام.

اسمع كلام الدكتور لأنه عارف أكتر منك، أسمع كلام الأستاذ لأنه فاهم عنك، واسمع كلام الحكومة لأنها عاوزه مصلحتك.

يكبر البيبي ويسمع كلام الدكتور حتى لو كان الدكتور ده دبلوم صنايع أو دكتور في «حتى»، يكبر البيبي ويسمع كلام الأستاذ حتى لو كان الأستاذ ده مُعاق ذهنياً، يكبر البيبي ويسمع كلام الحكومة حتى لو الحكومة قالت: إن الاقتصاد في ازدهار.. وكلها كام سنة ونلعب بالفلوس لعب.

ورغم أنه شايف بعنيه، وسامع بودانه – اللي جالها طرش مبكر – لكنه يختار ألا يرى أو يسمع، باختصار بيقرطس نفسه بنفسه، والنتيجة أن يتحول لجزء من كتلة الجهل والأمية والتي هي في حد ذاتها كنز من القراطيس للحكومات على مر التاريخ، لأن السلطة الحاكمة من مصلحتها أن يظل السواد الأعظم من الشعب تحت الحد الأدنى من العلم والمعرفة على أعتبار أن وعيّ الشعوب هو سلاح في وجه أي سلطة مستبدة.

ولذلك ظلت مفاهيم كثيرة مجهولة، أو غامضة، أو ملتبسة على البعض في أفضل الأحوال، على سبيل المثال مفهوم (التضخم)، فرغم أنه مفهوم إلا أنه غير مفهوم للغالبية العظمي من الناس سواء كانوا متعلمين أو خريجي محو الأمية

أو بصمجية، وسبب غموض مفهوم التضخم هو رغبة الحكومة في الحفاظ على كتلة الجهل والأمية، وبالتالي هي فرصة للتلاعب بعقول القراطيس.
وحتى لا تفهم كلامي غلط، أنا هنا لا أتحدث عن الاقتصاد ولكني حبيت أبدأ الحكاية من البداية.

العالم كله يحكمه اقتصادياً قانون غاية في البساطة اسمه (قانون العرض والطلب)، تخيل أن جميع الفلاحين في الوطن العربي زرعوا طماطم ما عدا فلاح واحد زرع بطاطس، بديهي نتوقع أن يكون طن الطماطم بجنيه واحد، وكيلو البطاطس بألف جنيه.. صح؟
والسبب أن كمية المعروض من الطماطم أكبر من كمية الطلب عليها وبالتالي هبط السعر (تلقائياً)، والعكس مع البطاطس، والذي تحكم في هذه المسئلة وفرض السعر هو قانون العرض والطلب، وكل السلع ينطبق عليها قانون العرض والطلب حتى النقود نفسها يسري عليها نفس القانون.
طيب.. ما هو السر وراء ارتفاع قيمة الدولار الأمريكي أمام

الجنيه المصري؟ ولماذا في الماضي – في الثلاثينيات والأربعينيات – كان الجنيه المصري يساوي أربعة دولارت أمريكية؟

لأنه كما قلنا قانون العرض والطلب يتحكم في سعر العملة باعتبارها سلعة، يعني الأمريكان عندهم سلعة غير موجودة عندنا وهي أجهزة الكمبيوتر مثلاً، هل ممكن نشتري منهم جهاز كمبيوتر وندفع ثمنه بالجنيه المصري؟ طبعاً ردهم هيكون: روحوا استعملوا الورق ده – لا مؤخده – في الحمام عندكم في بلدكم، وكلمة (لا مؤخذه) هذه من عندي هم هيخبطوا الرد وشك سد حنك كده.

طيب والحل يا ماما أمريكا؟ الحل يا حبيبي تجيب لنا الأخضر.. عايزين دولار، نجيب منين الدولار؟ طبعاً نشتريه، وفي هذه الحالة يزيد الطلب على الدولار ويرتفع سعره تلقائياً لأن الاقتصاد الأمريكي قوي لدرجة أن الدولار من العملات المحررة من سعر الصرف، يعني تخضع لقانون السوق (قانون العرض والطلب).

زمان أيام الملك فاروق مثلاً كانت مصر دولة زراعية، وكان عندنا سلعة ليست موجودة عند غيرنا وهي القطن طويل

التيلة، وكنا نبيعه بالجنيه المصري وبالتالي دول العالم كانت مضطره تشتري الجنيه المصري علشان تشتري به القطن، وهذا هو السبب الرئيسي لارتفاع قيمة الجنيه في ذلك الزمن إلى جانب ارتباط الجنيه المصري بالإسترليني، وهي من ضمن عوامل اقتصادية أخرى ليست موضوعنا.

ولو قال لك أحد أن السبب الحقيقى هو أن سكان مصر كانوا ١٨ مليون نسمة فقط، قل له.. حمرا، لأن ألمانيا في نفس ذات الزمن كانت قوة صناعية عظمي وغزت العالم وعدد سكانها كان ٨٠ مليون نسمة.

وبالمناسبة رسم مرور السفن في قناة السويس لو أصبح بالجنيه المصري فبشكل تلقائي سوف ترتفع قيمة العملة المصرية ويستقيم عود الاقتصاد اللي ماشي على عكاز بسبب نفس قانون العرض والطلب، لكن للأسف هو قرار سياسي محتاج مسئول وطني شريف بيفهم وجرئ قبل أن يكون قرار اقتصادي، ولا تنس أني أتحدث عن التضحم وليس عن السياسة.. عندنا عيال عاوزين نربوها الله لا يسيئك.

هبوط سعر العملة المحلية مؤشر لهبوط اقتصاد الدولة بشكل

عام لكنه ليس سبب، السبب الرئيسي لهبوط المستوى الاقتصادي وربما انهياره هو تحول المجتمع من الاقتصاد المنتج إلى الاقتصاد المستهلك.
معناه ايه الكلام ده؟ تعالى نرجع بالزمن ونشوف..

لمّا انقلب الضباط الأحرار على الملك فاروق في سنة ١٩٥٢ كان الجنيه المصري يساوي تقريباً أربعة دولارات، وفي فترة حكم عبد الناصر (١٨ سنة) تراجع الجنيه لكنه ظل محافظاً على كيانه بسبب آثار النهضة الصناعية التي حاول عبد الناصر إرساء قواعدها في مصر رغم أن آخر ثلاث سنوات من حكم عبد الناصر كانت سنوات مجهود حربي. ومع بداية فترة حكم السادات كان الجنيه المصري يساوي تقريباً ٢ ونصف دولار، وفي خلال العشر سنوات التي حكم فيها السادات تراجع الجنيه واستلمه مبارك في سنة ١٩٨١ يساوي دولار واحد و٢٠ سنت، وفي خلال ٣٠ سنة تالية اتخذت الدولة قرارات اقتصادية لا يتخذها سوى مجنون أو معتوه أو متآمر، ففي سنة ٢٠٠٣ على سبيل المثال لا الحصر، اتخذ

رئيس الورزاء وقتها عاطف عبيد قرار بتحرير سعر الصرف (تعويم الجنيه المصري)، أي جعل الجنيه المصري يخضع لقانون السوق (قانون العرض والطلب)، وهو ما أدي إلى ارتفاع رهيب للدولار الأمريكي المتحرر أصلاً والخاضع لقانون السوق فارتفع سعر الدولار أمام الجنيه المصري إلى الضعف في عام واحد فقط، ومازال ارتفاعه مستمراً ليفقد الجنيه أكثر من ٣٠٠٠٪ من قيمته منذ عام ١٩٥٢، نعم ٣٠٠٠٪، يعني السلعة التي كان ثمنها عام ١٩٥٠ يساوي جنيه، أصبح ثمنها الآن ثلاثة آلاف جنيه، وأسباب انهيار العملة الوطنية كثيرة ومتشعبة لكن أهمها كما قلنا تحول الاقتصاد من الاقتصاد المُنتج إلى الاقتصاد المُستهلك، يعني مثلاً بما أن العالم المتقدم بالهندسة الوراثية والتكنولوجيات الحديثة قدر يجعل الفدان الواحد من الذرة ينتج أطنان، وعندنا الزراعة أصبحت ببركة دعاء الوالدين وإنتاج فدان الذرة بالكتير يعمل كيس فيشار، إذن أصبحنا مضطرين نشتري الذرة والقمح وحتى حب العزيز من عندهم، يعني نشتري الدولار عشان نشتري به سم هاري، وياريت أكل البني آدمين فقط.. لكن كمان أكل القطط

والكلاب، وأدوات المكياج والتجميل، والشيكولاته والبسكويتات، وفوانيس رمضان، ولعب الأطفال، وغيرها من السلع التافهة التي جعلت الاقتصاد اقتصاد استهلاكي.. نصرف الملاليم اللي حيلتنا على سلع ليس من ورائها أي عائد بالظبط مثل الطفل اللي بيصرف فلوسه على بمب العيد، وفي الآخر يا ابني استفدت إيه؟ طظ فش.

أيضاً بما أن مصانع الغزل والنسيج في المحلة وكفر الدوار، والحديد والصلب في حلوان، ومصانع السكر في نجع حمادي كلها توقفت عن العمل أو على الأقل أصبحت تعجز عن إنتاج منتج بمقدوره المنافسة في السوق العالمي والمحلي الغارق طبعاً بالمنتجات المستوردة بجودة أعلى وسعر أرخص، إذن اليد الخفية في الاقتصاد التي قال عنها آدم سميث من أكثر من ٢٣٠ سنة تشتغل، وتُفتح حدود الدولة بأعتبارها سوق كبير ليتحول المستهلك تلقائياً للمنتج الأجنبي اللي استورده رجال الأعمال والمستوردين أصلاً بالعملة الصعبة، وطظ في

المنتج الوطني.[٣]

الحروب هي الأخرى عامل مهم من عوامل انهيار الاقتصاد لأن موارد الدولة كلها تتحول للمجهود الحربي الذي محصلته النهائية رصاص في الهواء، ولذلك في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية كان الأطفال في الشوارع يلعبون بآلاف الماركات كأنها ورق تواليت.. لأنها أصبحت بدون قدرة شرائية، وهذا هو التضخم إذا كنت لسه فاكر التضخم اللي احنا أصلاً بنتكلم عنه؟

الاقتصاد إذا انهار تنهار معه العملة الوطنية، بمعني أبسط ترتفع الأسعار، لكن في الواقع الاسعار لا ترتفع لكن قيمة العملة هي التي تنخفض، بمعني أبسط وأبسط من عشرين سنة كنت تستطيع شراء وجبة كاملة بجنيه واحد، حالياً الجنيه لو سقط منك على الأرض ممكن تكسل تجيبه لأنه أصبح بلا قيمة شرائية.

فتح عنيك وطرطق ودانك واطلع من القرطاس وانزل الشارع

(٣) مبدأ اليد الخفية Invisible hand ابتكره الاقتصادي الأسكتلندي الكبير آدم سميث ويعني أن الفرد الذي يقوم بالاهتمام بمصلحته الشخصية يساهم أيضاً في الارتقاء بمجتمعه ككل، أي أن العائد العام للمجتمع هو مجموع عوائد الإفراد.

شوف الأسعار، واسمع شكاوى الناس وصوت اللطم على الخدود علشان تعرف الاقتصاد قد إيه منهار، ولو حد قالك أن التضخم وارتفاع الأسعار سببهم الزيادة السكانية، قوله صح.. الكوسة فعلا غالية، بس القرع رخيص، وفي بلاد بره الحكومات تتعامل مع الزيادة السكانية باعتبارها من موارد الدولة، لكن في بلاد جوه هي شماعة علشان تتعلق عليها الخيبة التقيلة، ولو صدقت كلامهم يبقى أوعى تلوم على نفسك وعلى عقلك اللي بيصدق خزعبلات.. اللوم على حصوة الملح اللي رشوها يوم سبوعك وهما فرحانين بالقرطاس الصغير وبيعلموه أول مبادئ الثقافة القرطاسية..

اسمع كلام .. وكلام .. وكلام.

• • •

تاتا . . خطّي الشبكة

لو كنت عجوز مثلي فلا شك أن من أكثر الأفلام التي ضحكت وأنت تشاهدها هو (فيلم ثقافي)[٤]، ولا أحد يستطيع معرفة سر ضحكاتك إلا من ينتمي لنفس جيلك وعاش في ظروف قريبة من الظروف التي عشت فيها أنت، وتعالى نبدأ الحكاية من البداية..

المجتمع المصري هو مجتمع محافظ ومتدين بطبعه لأنه على مدار التاريخ وهو في قلب الأحداث خصوصاً بعد دخول

(٤) فيلم ثقافي هو فيلم كوميدي مصري من إنتاج سنة ٢٠٠٠، ويناقش أزمة مجموعة من الشباب والمشاكل الحياتية التي تواجههم وأبرزها صعوبة الزواج نظرا للظروف الاقتصادية فيلجأوا للهروب من واقعهم بمشاهدة الأفلام الإباحية. وبالمناسبة جملة (فيلم ثقافي) كان الاسم الحركي بين الشباب في ذلك الزمن للفيلم الإباحي.

الإسلام مع عمرو بن العاص، ومع توالي الخلافات الإسلامية ظلت مصر من أهم الولايات لدرجة أن القاهرة بناها القائد جوهر الصقلي ودخلها الخليفة المعز لدين الله وجعلها عاصمة خلافة الدولة الفاطمية، وبعدها كانت تابعة للخلافة العثمانية، ولـمّا بدأت ثورة المرأة على المجتمع المحافظ في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ورفضت سجنها وتهميشها في دور أمينة تحت جناح سي السيد؛ تحول المجتمع المصري المحافظ تدريجياً لمجتمع منفتح على ثقافات العالم الغربي، وبعد الاهتمام بالكُتّاب والأزهر والصالونات الثقافية والأفكار الثورية، أصبح اهتمامه منصب على الأزياء والموضة والإتيكيت والسهر والعربدة لأننا من البداية مجتمع بائس مغلوب على أمره، وتطبيقاً لقول ابن خلدون في مقدمته: «إن الأمم المغلوبة تقلد الأمم الغالبة»، أصبح التقليد عندنا أعمى، وتسربت إلينا مع أفكار الغرب أخطر فكرة على الإطلاق وهي فكرة الحرية المطلقة.

والحرية المطلقة هي الفوضى بعينها، فوضى في كل شيء،

بدأت بتحرير المرأة ووصلت لمؤامرة كبيرة، وقبل أن تصفني بأني مناصر لنظرية المؤامرة.. تعالى نحسبها سوا..

ما هو مكمن قوتنا نحن كمجتمع مصري أو مجتمع عربي بشكل عام؟ السلاح؟ طبعاً لو قامت حرب هنحارب بالمطواه قرن الغزال اللي حيلتنا. الوحدة؟ لـمّا الشمس تتحد مع القمر نبقى نتحد وعليك خير. العمل؟ ولله الحمد مأنتخين ونايمين في الخط وعايشين في القهاوي. العلم؟ التكنولوجيا؟ المال؟ الجمال؟ الصحة؟ الشباب؟ كل ده إيدك منه والأرض.

مكمن قوتنا الحقيقي.. هو الدين.

ولا تظن أني شيخ يقف على منبر، أو قس يقف على منصة فأنا أقل من ذلك بكثير، لكني فقط أفكر بصوت عالي بالمنطق المجرد.

إذا كان مجموعة من اليهود كانوا يعيشون تحت كرباج وسيف الرومان في فلسطين، وفي خلال ٣٠٠ سنة أصبحوا قوة عظمى تهدد عرش روما وتجعل الامبراطور قسطنطين يرضخ لهم وترضخ معه الامبراطورية الرومانية كلها، إذن لابد أن نسأل

عن القوة العجيبة التي فعلت ذلك؟ وهى الديانة المسيحية.
وإذا كان مجموعة من البدو كانوا يعيشون في صحراء شبة الجزيرة العربية وغارقين في الجهل وعبادة الأصنام وحروب طاحنة ولأسباب تافهة، وفي خلال ٥٠ سنة يصبحوا قوة عظمى ويبنوا حضارة عظيمة في العقول، إذن لابد أن نسأل عن القوة العجيبة التي فعلت ذلك؟ وهي الإسلام.
يعني في الحالتين كان الدين مصدر القوة، وبالتالي لو لك عدو لابد وأن يكون هدفه الأول هو مصدر قوتك، لابد له أن يجردك من دينك بمخطط طويل الأمد عمره أكثر من مائة عام، بدأ كما قلنا بتحرير المرأة، مروراً بكشف حجاب المرأة، وصولاً إلى جعلها سلعة وبضاعة رخيصة واختصارها في مجرد لحم أبيض بعدما كانت كيان بشري مصون، وهذه هي الحرية وهذا هو التمدن! يعني باختصار قلب دماغها وأصبح العالي واطي والواطي عالي.
أما الرجل.. قلع الطربوش، والقرطاس الصغير اللي كنا بنغني له من شوية حلقاتك برجلاتك، كبر واتبرجل واتلخبط عقله

وأصبح قرطاس يافع طول بعرض غرقان في مية البطيخ، وبدل ما نقول له تاتا خطي العتبة.. نقوله تاتا خطي الشبكة. شبكة السيجارة البني اللي بتخلى الدنيا بمبي، واليمين شمال، والشمال أسلوب حياة، والشارع اللي ورايا قدامي. شبكة الجهل والمرض والفقر والأمية.. وشبكة (الشبكة).

والشبكة هو اسم مجلة لبنانية غزت مصر في التسعينيات – على ما أذكر – وكانت اسم على مسمى، وفيها ربما لأول مرة كنا نرى المزز شبة العارية.. وذلك قبل ظهور مصطلح (مزه) بزمن الزمن. ولـمّا نشوف المزة شبة العارية لازم تلقائياً نبحث عن المزة العارية، نبحث عن مجلة البلاي بوي وغيرها من المجلات الإباحية، وبعدها تأتي مرحلة الفيديو في نوادي فيديو للشباب فقط، للكبار فقط، واخيراً مرحلة (فيلم ثقافي). شوفت المجتمع تحول من إيه لإيه؟ وإزاي قدر عدوك يدخل لغاية بيتك علشان يدمر مصدر قوتك؟ وبعد كده تقول مش مؤامرة؟

طيب إيه رأيك في اللغة اللي أنت بتقراها دلوقت؟ كوكتيل

فصحى على عامية مش كده؟ إيه رأيك في لغة الشارع؟ إيه رأيك في الفرنكو؟

تعرف أن اللغة التركية كانت تُكتب بالحروف العربية، ويقال أنهم بدأوا يكتبوها بالحروف اللاتينية شوية بشوية زيّ ما أحنا بنكتب فرنكو لغاية لمّا الملعون أتاتورك جعل اللغة التركية تُكتب بالحروف اللاتينية(٥) وظهر للوجود دولة علمانية كانت أفلامها منافس قوي لأفلام البورنو الأجنبية. أحنا تقريباً على نفس الخط، يعني ممكن يجي يوم ونكتب اللغة العربية بحروف لاتينية وينسى أحفادنا الحروف العربية وتندثر ويندثر معها القرآن !!

مستغرب أن كلمتين فرنكو ممكن يعملوا كده؟ ما هي صورة بالمايوه في مجلة الشبكة وصلت لفيلم ثقافي.

لكن مع بداية الألفية الثالثة كانت هناك شبكة أخطر في انتظار قبائل وعشائر من القراطيس، شبكة الإنترنت. وفيها أصبحت الصورة العارية مجرد إعلان بوب أب، والفيلم الإباحي

(٥) في نوفمبر سنة ١٩٢٨ صدر قانون الحروف التركية الجديدة برقم ١٣٥٣، والذي بمقتضاه تم إقرار أستخدام الحروف اللاتينية بدلاً من الأبجدية العثمانية.

يأتي بضغطة زر بعد عذاب الفيديو وشرائط الفيديو، وأمسح الهيد بورقة نتيجة يا ابني، وابحث عن المكان المناسب للرجل المناسب. أما الدعارة الإلكترونية فأصبحت زيّ قزقزة اللب، وشقط ولقط وفيس من غير بوك.. شبكة قراطيس.. وتاتا خطي الشبكة.

• • •

بلد بتاعة شهادات صحيح

العلم ليس اكتشاف أو اختراع، العلم حصيلة تراكمية لأجيال متتالية، وكل العلوم الإنسانية متصلة ببعضها ومعتمدة على بعضها، واستخدم الإنسان الكتابة لحفظ العلم للأجيال التالية ليس لكي يتعلمونه فقط، ولكن لكي يتعلمونه ويضيفون إليه ويحفظونه للأجيال التالية، وبالتالي أول شيء يتعلمه الإنسان هو القراءة حتى يستطيع تحصيل ميراث الأجيال السابقة من العلم، ثم الكتابة كي يحفظ ما أضافه للأجيال التالية.. وهذا باختصار العلم والعملية التعليمية والهدف منها.

في مصر أجيال وأجيال عاشت في زمن الفراعنة فهموا تلك

الحدوتة جيداً، وبرعوا في العلم لدرجة مذهلة، وتركوا للإنسانية شواهد على براعتهم، شواهد فقط لأن علمهم مات ودُفن معهم لأنهم فهموا العملية التعليمية فسجنوها بأيدي الكهنة كي تأتي أجيال من بعدهم تنتمي للعصر الحجري، أجيال وأجيال عاشت محرومة من نور العلم تحت سيوف المحتل الروماني واليوناني والبطلمي والفارسي والمملوكي والعثماني، أجيال دُفنت تحت تراب الجهل وراحت عليها نومه طويلة حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما بدأت حركات التنوير وبدأ التعليم الحديث في مصر يحاول مواكبة التطور وتحصيل مخزون العلم الإنساني الذي فاته وهو نائم.

كان التعليم في ذلك الزمن مقتصراً على الطبقة البورجوازية من أولاد الذوات القادرين على دفع تكلفة العلم، أما باقي الشعب فكانوا طبقة الفلاحين والحرفيين، يعني كان المجتمع طبقات متوازنة هي طبقة المتعلمين والمثقفين الذين تعلموا في جامعات أوروبا، وطبقة العمال والفلاحين والذين كان العلم

عندهم مقتصراً على الكُتّاب وحفظ القرآن والعلوم الشرعية. ولكن ظهرت فلتات من أبناء الشعب بدت عليهم علامات النبوغ وحصلوا على بعثات علمية في دول أوروبا ورجعوا كي ينادوا بأن العلم حق للجميع كالماء والهواء.

وعندما بدأ عصر الجمهورية في سنة ١٩٥٢ كان واحداً من المبادئ الأساسية له هو المساواه، وعليه أصبح العلم بالفعل مجاني وحق لكل من هب ودب، وخرجت أجيال وأجيال من المتعلمين حصيلتهم في الزمن الحاضر عبارة عن.. نصف الشعب مازال أمي لا يعرف القراءة والكتابة، والنصف الآخر إما تسرب من مراحل التعليم، أو تخرج من الجامعة ولم يقرأ في حياته كتاباً كاملاً، وبيكتب كده.. (الحمدو لله، الله واكبر، انشاء الله)، والنتيجة مهندس يبني عمارة فتقع فوق نافوخ سكانها، وطبيب ينسى السيجارة أو الطفاية في بطن المريض، ومحامي يقول أن الرئيس مبارك كان مؤيداً للثوار الذين ثاروا ضده... اوماااال، وإعلامين يصدعون أدمغتنا بأن التعليم في أزمة وكأن القيادة السياسية لا تعرف، لا هم عارفين وقاصدين

أن يتخرج من الجامعات متعلمين أميين وجهلاء كي يمشوا بـ شيييي.. حاا، باختصار.. قراطيس.

من مصلحة أي سلطة مستبدة أن تحافظ على السواد الأعظم من الشعب تحت خط الجهل والأمية ليكونوا سندها، ولهذا وأكثر من هذا تجد أساليب التعليم في العالم المتحضر حمادة، وأساليب التعليم عندنا حمادة تاني خالص، المدارس في العالم كله تستقبل الأطفال في المرحلة الإبتدائية لتعلمهم كيف يتعلموا، أما عندنا فالوضع مختلف لأن الأسطورة تقول أن الطفل المصري أذكى طفل في العالم وبالتالي هو فاهم كويس جداً أوي خالص وبالفطرة ماذا تعني العملية التعليمية، فيدخل الحضانة وهي مرحلة (التقوير) لدماغه، وبعدها يدخل أولى ابتدائي كي تبدأ عملية الحشو..

عملية طويلة هدفها حشو دماغه بكلام فارغ المطلوب منه يدلقه على ورقة الإجابة في اختبار أخر السنة وكان الله بالسر عليم، عملية حشو تستمر سنين طويلة يتخرج بعدها على فيض الكريم، ويبدأ مواجهة الحياة وسوق العمل وهو لا

يعرف الفرق بين مصطفى كامل الزعيم الوطني، ومصطفى كامل المطرب، فيكون مضطراً لدخول عملية حشو ثانية اسمها الدورات التدريبية، وأشهر دورة تدريبة في مصر هي دورة ICDL، وفيها يتعلم مبادئ الكمبيوتر ويستلم شهادة تستطيع تسميتها محو أمية الكمبيوتر، وبالمناسبة الحكومة تشترط في بعض الأحيان على موظفيها الحصول على هذه الشهادة العقيمة.

أما من شمله الله بكرمه ليجد وقت فراغ فإنه يستمر في العملية التعليمية بعد البكالوريوس أو الليسانس بعمل دبلومة، ثم ماجستير، ثم دكتوراه، ويبدأ حياته العملية في سن الأربعين على أحسن تقدير. ورغم أنه أصبح دكتور قد الدنيا إلا أن معلوماته ستجدها منحصرة بشكل ضيق جداً في مجال تخصصه، ولو سألته عن السنة التي ولد فيها السيد المسيح عليه السلام؟ ابقى تعالى تف في وشي لو عرف يجاوبك، لأنه ببساطة عبارة عن قرطاس تم حشوه بمجموعة من قشور المعارف كي يحشي بيها قراطيس صغيرة.. ودمتم. هذه هي

وظيفته في الحياة ولا جديد يضاف للبشرية أو التراكم العلمي بدليل أن جامعة القاهرة – وهي واحدة من الجامعات العريقة – ليست ضمن أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم لأنها لا تُضيف للعلم شيء، والبحث العلمي فيها والبعثات العلمية ليست أكتر من روتين.

كل هذا كوم، والشهادات العُليا في علوم الفنكوش كوم تاني، يعني تجد طالب فاشل نجح في الثانوية العامة بمجموع ٣٠٪ والتحق بجامعة خاصة وبفلوس أبوه اشترى شهادة الهندسة أو الطب، وغيره سافر وحصل على شهادة الدكتوراه في علوم ما وراء الطبيعة ورجع كي يصدّع دماغنا بالتنمية البشرية والبرمجة العصبية وغيرها من علوم الفنكوش التي صنعت مزيداً من القراطيس، وخلقت فجوة كبيرة بين العلم الحقيقي، والعلم المزيف(٦).

---

(٦) العلوم المزيفة Pseudo Sciences هي مجموعة من المعارف والمناهج والمعتقدات التي تدعي أنها تنطبق عليها مواصفات العلم وخصائصه في حين انها لا تتبع طرائق المنهج العلمي. ورغم أنها تبدو علمية، إلا أنها لا تخضع لقواعد قابلية الفحص Testability المشروطة في المنهج العلمي، ومن هذه العلوم التنجيم، وغسيل الدماغ، وتحليل الشخصية، والتنويم المغناطيسي، والبرمجة اللغوية والعصبية.. وغيرها.

جيل كامل من أنصاف وأرباع الشعراء، والأدباء، والإعلاميين، والمفكرين، والفنانين، والمعلمين أصبح على كاهلهم تربية أجيال متتالية من أنصاف الأنصاف، وأرباع الأرباع. وتعالى للمصيبة الأكبر وهي التعليم الأزهري في مصر..

الجامع الأزهر تم بناؤه سنة ٩٧٢م، وأصبح جامعة العلوم الشرعية وقبلة المسلمين في أرباع الدنيا للبحث والدرس في علوم الدين منذ أكثر من ألف سنة، وتخرج منه علماء أجلاء على مدار عقود، أما في الوقت الحاضر فأصبح قرطاس كبير لقراطيس صغيرة تتعلم فيه قشور الدين وتطويعه للتضليل والتطبيل للحاكم، وتعيش على مبدأ.. «مشينا في الجد شحتنا سيجارة، مشينا في الهلس بنينا عمارة».

يعني الجامعة التي من المفروض أن يتخرج منها دعاة ومصلحين، وحتى أطباء ومهندسين بأخلاق الإسلام وتعاليمه، أصبح يتخرج منها الحشاشين والأفاقين والمطبلاتية والزمارين كي يحللوا الحرام ويحرموا الحلال ويكونوا وجهة الإسلام السياسي في مصر. أما المتعلم الحقيقي، والمثقف الحقيقي، ورجل الدين

الحقيقي تجده في فندق يعمل بولمان أو استيورد، تجده تحت عمارة سكنية يعمل بواب أو حارس أمن أو سايس جراج، تجده في شركة من شركات القطاع الخاص يقف على ماكينة ١٢ ساعة متواصلة حتى ينكسر ظهره وينحني أكثر وأكثر، وحتى تبقى بلد شهادات، وستظل بلد شهادات لأن القرطاس نفسه.. مقلوب.

• • •

كُلّ فول وصلِ على الرسول

في فيلم لعبة الست، كان نجيب الريحاني يجسد شخصية عاطل كحيان ودايخ يبحث على عمل، قرصه الجوع لكنه مفلس، وإذ فجأةً يجد تعريفة[٧] على الأرض، يلتقطها ويجري على بائع الفول ويقرأ عنده لافتة مكتوب عليها (أكل الفول يفتح العقل المقفول، وإذا خلص الفول أنا مش مسئول)، لكن البائع يكتشف أن التعريفة برّانية (مزيفة)، ويظل عمنا نجيب الريحاني على جوعه وعصافير بطنه بتصوصو.

تخيل منذ ذلك الزمن وعربة الفول ركن ركين في الشارع

(٧) التعريفة هي عملة مصرية انقرضت بسبب التضخم وتساوي ٥ مليمات أو نصف قرش.

المصري، منذ ذلك الزمن والفول وجبة أساسية في الفطور أو السحور في رمضان والسبب أنه أرخص طعام، أو كان أرخص طعام للغلابة قبل أن يتم إصدار نسخ حديثة منه خاصة لأولاد الذوات تحت مسمى (فول أمريكانا).. يعني يا ربي حتى الفول دخلت فيه أمريكا.

لكن الفول كان له دور أكثر أهمية في تاريخ مصر، كان الشماعة التي تعلّق عليها تأخر العقلية المصرية فسموه (حبوب منع الفهم)، ومنع الفهم هو السبب في تأخر كل شيء وأولهم الاقتصاد، قال يعني الفول هو سبب تدهور الاقتصاد.

طيب هو ليه الفول المفترى عليه اتعمل شماعة؟ وليه الحكومة أصلاً تسيب الاقتصاد ينهار؟

شوف.. الحكومة في الاقتصاد عندها اختيار من اثنين، إما أن تبُلطج على الناس وتضع أيديها على كل موارد الدولة كالمصانع والمزارع وحقول التعدين وقطاع السياحة والشركات الخدمية وتجمع النقود وتوزعها بمعرفتها على الشعب، أو أنها

تترك موارد الدولة مملوكة لأفراد وتكتفي بتحصيل الرسوم الضريبية والدمغات باعتبارها مال عام تصرف منه على إنشاء الطرق، والبنية التحتية، والخدمات الصحية، والدعم، والتعليم، والجيش، والشرطة، وخلافه.

الاختيار الأول اسمه النظام الاشتراكي، والاختيار الثاني اسمه النظام الرأسمالي الحر. طيب احنا مين في دول؟ احنا كل دول، احنا سمك لبن تمر هندي.. إزاي؟ أقولك..

أيام حكم الملكية في مصر كان النظام الاقتصادي هو النظام الرأسمالى، ولأننا كنا دولة زراعية فكان فيه الباشا اللي يملك ألف فدان وحده والناس شغالين عنده بالكرباج يا عبد الصمد. لكن طبعاً هذه صورة ذهنية حاول الإعلام رسمها في أذهان الناس لتمجيد عصر الجمهورية والحرية والمساواة التي بسببها (عليّ) ابن الجنايني تزوج من (إنجي) بنت الباشا، ولولا الجمهورية كان عليّ اتربط في الشجرة واتجلد بالكرباج. كل ده كلام هجص، الحقيقة أن مصر في ذلك الزمن كان

اقتصادها قوي لدرجة أنها كانت دائنة لدول أوروبا، وكان الناس يعيشون في رغد حقيقي وليس مزيف ومن بره هالله هالله ومن جوه يعلم الله، كانت الفلوس قليلة وشحيحة لكن بالفلوس القليلة تقدر تشتري سلع كثيرة أساسية وضرورية بعيداً عن الرفاهية الكاذبة، والمظاهر الاستهلاكية الفارغة. باختصار كان التضخم في أقل مستوياته.. فاكر التضخم؟ يعني القيمة الشرائية للعملة مرتفعة، يعني الأسعار في الأرض.. يعني البنت خديجة الشغالة أخذت قرش صاغ من عم أيوب علشان تشتري ٤ أرطال لحمة، و٢٠ بيضة، وتدفع إيجار الشقة.. طمعت في الباقى طفشت[٨].

ولمّا تحولت مصر من الملكية للجمهورية بدأت الحضارة القرطاسية تزدهر، وبدأ تزييف الوعي ونزيف الاقتصاد المصري بسبب دخول مصر في حروب متتالية لأسباب واعتبارات سياسية ليست موضوعنا حالياً. حاول عبد الناصر البحث عن حلفاء ووجد ضالته في المعسكر الشرقي وهو الاتحاد

(٨) مسرحية الجوكر – محمد صبحي.

السوفيتي، وكان الاتحاد السوفيتي اقتصادياً نظام اشتراكي.. مرة أخرى يعني الحكومة هي التي تملك كل شيء وتوزع العائد على الشعب بمعرفتها في شكل أسهم وسندات وأجور وخدمات، وكان بديهي أن تتعلق مصر بذيل الاتحاد السوفيتي وتتحول من النظام الرأسمالي إلى النظام الاشتراكي، ويغني عبد الحليم.. (أنا وأنت، وأنت وهو وهي، علينا نعمل الاشتراكية).

وراح الحاج عبد الناصر فارض سياسة التأميم وأخذ الشركات والمصانع وحتى قناة السويس في حجر الدولة وقال لأصحابها إكسوا برا خرسيس أدب سيس، وأخذ الأرض من الإقطاعيين ووزعها على الفلاحين الغلابة علشان يعيشوا بكرامة.

ضربة كانت من معلم.. لكن نتيجتها حروب متتالية ومؤامرات، وتدهور الاقتصاد بدل ما يزدهر بعد التحول للنظام الاشتراكي.

وجاء السادات الذي أخذ ديله في أسنانه وجري على المعسكر الغربي وتعلق في ذيل الولايات المتحدة الرأسمالية، واللي يتجوز

أمي أقوله يا عمي، فتحولت مصر لدولة رأسمالية بقرار الانفتاح الاقتصادي واللي قال عنه وقتها الأستاذ أحمد بهاء الدين: «انفتاح سداح مداح»، وقال عنه الشاعر أحمد فؤاد نجم: «ياللي فتحت البتاع فتحك على مقفول». وأدت سياسة الانفتاح الاقتصادي إلى نمو رؤوس المال الصغيرة وتكون طبقة من الأثرياء الجدد أو بمعني أدق الإقطاعيين الجدد وبالتالي حدثت فجوة في طبقات المجتمع(٩).

ما حدث بسبب الانفتاح أن جزء من الطبقة المتوسطة انهار مادياً وانضم للطبقة الدنيا، والجزء الآخر استغل الانفتاح وفتّح دماغه وانضم للطبقة العليا، وتآكل الطبقة المتوسطة في أي مجتمع له مضار خطيرة أهمها انهيار القيم، بمعني عندما يصبح دخل السبّاك أكبر من دخل أستاذ الجامعة تكون النتيجة هجرة نخبة العقول وهو ما حدث بالفعل كنتيجة

(٩) المجتمع المتوازن ينقسم إلى ثلاث طبقات على حسب المستوى الاقتصادى، طبق دنيا وهي الطبقة العاملة وأفقر الطبقات، وطبقة متوسطة وهى طبقة تمتلك كم محدود من الاموال تمكنها من الوصول إلى مستويات معتدله من التعليم والخدمات الصحية والثقافية وتعتبر اختفائها علامة غير صحية في الدولة، وطبقة عليا وهي طبقة الأغنياء.

حتمية لسياسة اقتصادية غبية وغير مدروسة، حدث ذلك كنتيجة وفي نفس الوقت كان سبب للعديد من الانهيارات على المستوى الاقتصادي والقيمي والأخلاقي تماماً مثل أوراق الدومينو المتراصة، بسقوط واحدة ينهار البناء كله بالتوالي. وجاء مبارك الذي ورث عن السادات تركة عظيمة من الفساد المترتب على انهيار الاقتصاد والقيم، وأبدع مبارك في هذه التركة ونمت وترعرعت في عصره. أكتشف أنه بسبب الاشتراكية لبسنا في الحيط وطوابير الجميعة أصبحت أطول من طوابير النمل، وبسبب الرأسمالية جوعنا وشحتنا وطوابير أفران العيش أصبحت أطول من طوابير الجمعية اللي هي أطول من طوابير النمل، فقرر تطبيق النظام المختلط، يعني ٢ كيلو اشتراكية بقشرها على نصف كيلو رأسمالية مبشورة، نضيف عليهم تخفيض الجمارك وتشجيع الاستثمار الأجنبي بتسهيلات ضريبية وإعفاءات جمركية وقانون عمل موحد، باختصار قرطاس كبير لعلاج النزيف الاقتصادي، أما النتيجة

هي..

أوعى تكون منتظر أقولك النتيجة؟ أنزل اتمشى في الشوارع وأنت تعرفها لوحدك..

عموما استمر الاقتصاد في التدهور بعد انهيار قطاع الصناعة تماماً وبيع وخصخصة أعمدتها الرئيسية، وانهار أيضاً قطاع الزراعة بالتحول من زراعة المحاصيل الاستراتيجية كالقمح والذرة والقطن إلى زراعة محاصيل استهلاكية كالفراولة والكنتالوب وغيرها من محاصيل الرفاهية والمسرطنة أيضاً كي تزيد الطين بلة، ناهيك عن استمرار تآكل الطبقة المتوسطة، وهجرة العقول، وتحول المجتمع بشكل كامل لمجتمع استهلاكي غير منتج فوصل الاقتصاد الوطني إلى الحضيض، ووصل التضخم إلى أعلى مستوياته.

كانت الركيزة الرئيسية التي استند إليها هذا الانهيار هو سياسة الانفتاح الاقتصادي التي غيّبت مفهوم القيم والمباديء فاستشرى الفساد الإداري والوظيفي والمالي، وبقت المناصب

القيادية شاغرة من أصحاب العقول فملئها أصحاب الكروش، بينما السواد الأعظم من الشعب مازال واقفاً على عربة الفول.. ياكل فول.. ويصلِ على الرسول.

• • •

كوز المحبة المخرم

في إحدى الليالي الخوالى قررنا تناول وجبة السحور بحيّ الحسين، ولأن المنطقة كانت مكتظة فقد اتخذنا قراراً بالتوجه إلى السيدة زينب.

حدث ذلك في بدايات عهدنا بالقاهرة، سألت امرأة عجوز كيف نصل إلى السيدة زينب؟ ولمّا رأتنا صحبة نصحتنا بالتمشية وبالفعل ترجلنا من الحسين إلى السيدة.

طوال الطريق وأنا أفكر في المطرب الشعبي عبد المطلب رحمه الله وكيف كان يمشي هذا المشوار مرتين يومياً لأنه من سكان حي السيدة وحبيبته من سكان حي الحسين؟ مرتين يومياً

يمشي هذا المشوار فقط لكي (ينول كل الرضى)، وأظن أن الرضى الذي كان يحلم به هو أن تلقي عليه نظرة من وراء المشربية بعدما تكون قدماه ورمت من المشوار، وتحنط ساعتين أو ثلاثة تحت الشباك. وهذا هو الحب.. زمان.

كان المجتمع منغلق على نفسه والمرأة فيه ليست أكثر من الست أمينة التي خرجت من بيتها لأول مرة في حياتها وحدها وبدون إذن سي السيد وصدمتها السوارس.. تعمل إيه المسكينة؟ سيدنا الحسين ناداها قامت لبت النداء. لكن دعنا من الماضي البعيد، وأجعلنا في الماضي القريب.. السبعينيات والثمانينيات، زمن الهيبز والبيتلز والشعر الكنيش والبنطلون الشارلستون، زمن أزمة شقق الإسكان وزحمة يا دنيا زحمة، لكن أغرب شيء كان في ذلك الزمن هو (الميني والميكرو جيب).

وتعال كالعادة نبدأ الحكاية من جذورها..

بعد نكسة ٦٧ أفاق المجتمع المصري من غيبوبة عاش فيها

سنين، غيبوبة التجربة الناصرية وحلم الوحدة العربية و(ناصر يا حرية، ناصر يا وطنية)، اكتشف المصريون أنهم صنعوا تمثال أجوف لزعيم الأمة العربية وعبدوه، ولذلك كانت صدمة النكسة لها وقع شديد خصوصاً أن الفترة من ٥ يونيو – اليوم الذي بدأت فيه الحرب – و٩ يونيو – يوم إعلان الهزيمة وخطاب التنحي الشهير – كانت الإذاعة المصرية تقول أننا اسقطنا عشروميت طائرة اسرائيلية، والجيش المصري على مشارف تل أبيب، والصهاينة تم محوهم من الوجود ومش فاضل فيهم غير ضابط وجوز عساكر والست أم راشيل اللي مستخبية في قبو تحت بيتها.

لكن الحقيقة كانت صدمة، ومثل أي صدمة نفسية لابد أن يخرج الإنسان منها إما عابداً أو فاجراً، إما أن يتقرب من الله أو ينساه، وهذا بالضبط ما حدث للمجتمع المصري بعد النكسة، جزء منه ارتمى في أحضان الجماعات التكفيرية وكان النواة التي صنعت المد الإرهابي في الثمانينيات والتسعينات،

وجزء قال (يلا نفسي) وتعلم السمسرة والفهلوة والضحك على الدقون، واستغل الفقر والجهل وصنع المد الرأسمالي فيما بعد، وارتمى في أحضان الغرب وأفكاره وعاش حياة الترف بمنطق (إن خرب بيت أبوك خد منه قالب)، وغزت مصر على أيديهم موضة السوبر ماركت، والبوتيكات، والبيوتي سنتر، وبدأت الجيبة الحريمي (التنورة) تنكمش، يعني بعدما كانت واسعة وهفهافة وتصل حتى كعب القدم وبدون فتحة خلفية، أصبحت أضيق وأقصر وبفتحة وكتب كتاب كمان، فتحة بدأت بخمسة سنتيمتر ووصلت لعشرين، وارتفعت الجيبة للركبة وفوق الركبة، وظلت ترتفع وتنتشر وتتوغل وتتسرب حتى أصبحت تقريباً عبارة عن (أندر وير) في صورة جيبة.

لكن الغريب في هذه الحدوتة كلها هو صاحبنا الشاب بقميصه البُستاج، وبنطلونه الشارلستون النبيتي، بشعره الكنيش والسوالف التي بطول خط مترو حلون، هذا البني آدم كان يرى البنات رايحة جاية بالميني والميكرو جيب لكنه لم يحاول

أو يفكر أن يمد يده على واحدة منهن، وإذا حاول مغازلتها يقول: «الجو جميل أوي النهاردة»، ولو شطح وجمحت به الأخلاق يقول نفس ما قاله المرحوم جورج سيدهم في مسرحية المتزوجون.. «النور مولع وأنا مولع يا جميل».

أما الحب والذي هو موضوعنا أصلاً فكان امتداداً لقول أمير الشعراء: «نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء»، لقاء بعد محايلات ومداولات وانتظار لساعات امتداداً أيضاً لما فعله عبد المطلب، ومن الضروري أن يكون اللقاء في جنينة الأسماك.. مش عارف ليه؟ وجوابات على ورق ملون ومراسيل غرام بين المحبين ويا بخت من وفّق راسين في الحلال. وفي الحاضر.. في أيامنا الأسود من قعر الحلة، اختفت الميني والميكرو جيب، لكن القرطاس الصغير اللي يا دوب شنبه خط أخضر، ويا دوب تعلم يسحب دخان السيجارة على صدره أصبح قاعد كأنه إبليس على النواصي، ويده اللي تنقطع طرنشات طرنشات ممدودة على بنات الناس الرايحة والجاية

سواء كانت ترتدي بنطلون، أو جيبة طويلة، أو عباءة، أو حتى منتقبة، ولو كان محترم يمد لسانه فقط لكن بكلام لو سمعته المرأة من زوجها في غرفة النوم ممكن تطلب الطلاق. والحب عند جنابه عبارة عن يخضع لحقيقة مؤكدة هي أن كوز المحبة اتخرم.. إديله بونطة لحام.

• • •

أبو رجل مسلوخة

أجيال وأجيال تتوارث نفس أبطال القصص المجهولة.. النّداهة، البُعبُع، العوّ، وأبو رِجل مسلوخه. الطفل من صغره ينشئ ويترعرع على فكرة قوى الشر المحدقة به لو خالف الأوامر ووقع في المحذور..

لو اتأخرت بالليل النّداهة هاتخدك، لو ما سمعتش الكلام هاجيبلك البُعبُع أو العوّ ، وكأن البُعبُع أو العوّ مفيش وراهم شغلانة غيرك، لكن كل هذا أمره بسيط لأنه بمجرد أن يشب عنه الطوق ويعرف عقله، يفهم أن كل هذه إشاعات، وكلام ملهوش إثبات.

المشكلة في أبو رجل مسلوخة لأنه يظل عالقاً في الأذهان زمن طويل باعتباره أقرب الشخصيات للتصديق، فبما أن النّداهة والبُعبُع والعوّ شخصيات فنتازية، وكل طفل تخيلها بشكل مختلف إذن هي شخصيات وهمية.. فانتوم يعني، لكن أبو رجل مسلوخة هو بشر، وبالتالي تترسخ فكرة غريبة في عقل الطفل وتكبر معه، يكبر الطفل ويترعرع على فكرة أن كل صاحب عاهة أو إعاقة هو قريب أبو رجل مسلوخة من بعيد أو من قريب. والسينما ما تتوصاش، فعلى مدار عشرات السنين قامت بترسيخ الصورة الذهنية لحرامي الاطفال على أنه شخص لابد أن يكون أعرج أو أكتع ويمثل دور شحات غلبان يطلب حسنة قليلة تمنع بلاوي كتيرة، وبالتالي حدثت أكبر عملية تضليل عن أبو رجل مسلوخه الحقيقي.. ازاي؟ أقولك..

زمان كان هناك شخص مشهور اسمه شاويش الليل، وفي الأرياف كان اسمه خفير الدرك، والاثنين كان لهما جملة في مثل شهرتهم.. «ها مين هناك؟»، كانوا ملجأ للمواطن البسيط

وحصنه وحماه كما رأينا في كثير من أفلامنا الأبيض والأسود عندما كان المواطن ينادي.. «يا شاويش.. يا شاويش»، ويأتي الشاويش ينقذه من الحرامية ويقول لهم جملة شهيرة أيضاً.. «انجر قدامي منك ليه على القسم»، وفي قسم الشرطة يأخذ كل ذي حق حقه.

وفي أيامنا تطور شاويش الليل إلى الدورية الراكبة[١٠]، أو كما يسميها أولاد البلد.. (عربية الأتارى)، واختفى تماماً خفير الدرك، فكان بديهياً أن تقوم الدورية الراكبة بنفس دور شاويش الليل، يعني تصبح ملجأ للمواطن لكنها أصبحت ملجأ للحرامي بعدما تحولت الشرطة من خدمة الشعب لخدمة سيادته[١١].

أما المواطن الغلبان أصبح بلا ظهر أو أهل، أصبح مقطوع من شجرة كي يزيد غُلبه، وفي القسم يلبس قضية.. أي قضية.. مخدرات، سلاح، إرهاب، المهم أن حضرة الضابط

---

(١٠) سيارة الشرطة التي تطوف المدينة ليلًا.

(١١) كان شعار الشرطة المصرية «الشرطة في خدمة الشعب»، وتحول إلى «الشرطة في خدمة سيادة القانون».

الهُمام يظهر أمام رؤسائه باعتباره صلاح الدين الأيوبي وأنه شغال يونيفرسال وبينضف الوطن من أعداء الوطن.

أما صاحبنا الحرامي فهو مسنود بالفلوس أو المعارف، يعني مفيش حد يقدر يدوس له على طرف في الوقت اللي المواطن الغلبان ماشي جنب الحيط ودايخ السبع دوخات علشان قوت يومه ويوم أولاده.

ولكن كيف تحولت مصر من دولة يحكمها القانون إلى دولة تحكمها الواسطة؟ من دولة الكل فيها أمام القانون كانوا سواء إلى دولة إذا سرق فيها الشريف تركوه، وإذا سرق فيها الضعيف أقاموا عليه الحد؟ باختصار.. كيف تحولت مصر من دولة قانون إلى دولة بوليسية؟ تعالى معي خطوة صغيرة إلى الوراء..

عندما وصل مبارك لحكم مصر في عام ١٩٨١ بعد أغتيال السادات كانت مصر لاتزال متأثرة بالأفكار الناصرية، أفكار العدالة والمساواة والحرية والكرامة الإنسانية، لكن مبارك فهم الدرس جيداً، فهم أن الذين انقلبوا على الملك في عام ١٩٥٢

كانوا ضباط الجيش الذين خرجوا من طبقات اجتماعية دنيا، وأن الذين قتلوا السادات هم ضباب جيش خرجوا من نفس الطبقة، وبالتالي فإن الحل هو إقصاء هذه الطبقة بعيداً عن المناصب سواء في القوات المسلحة أو في جهاز الشرطة، والنتيجة أن هذه المناصب أصبحت حكراً على أولاد الذوات الذين عاشوا حياتهم في أبراج الرفاهية ولا يشعر أي منهم بمعاناة الفقير، لا يفهم أي منهم لماذا سرق هذا الرجل أو تلك المرأة رغيف خبر؟ لا يصدق أنه فعل ذلك بسبب الجوع لأنه لا يعرف شيء اسمه الجوع، وبالتالي هذا الرجل سارق ولابد أن يُحاكم بتهمة السرقة، وزيادة في التجويد يُلفّق له قضية مخدرات أو سلاح حتى يظهر هذا الضابط – ابن الناس – بأنه كفء.

أما الحرامي الحقيقي، وتاجر المخدرات الحقيقي فهو ابن ناس مثل الضابط المسئول عن ضبته، والقضاء من نفس الطبقة.

أعرف أن البعض قد يستاء مما ذكرت، ولكني والله لا أهين

أحد، ولا أتجنى على أحد، ولا أنتقد شخص بعينه لكني فقط أحاول تعديل صورة مقلوبة لشخصية أبو رجل مسلوخة المفترى عليه، فليس كل صاحب عاهة حرامي أطفال، وليس كل متسول يملك عمارات، وليس كل من لبس بدلة ميرى أو بدلة شيك وكرفات ابن ناس.

يعني ببساطة أبو رجل مسلوخة ليس هو أبو رجل مسلوخة الذي ظل يعيش في خيالنا أعواماً وأعوام، أبو رجل مسلوخة الحقيقي هو كل ظالم باسم القانون، هو كل لص مسنود بواسطة أو محسوبية أو مال، هو المحمي بقانون سكسونيا(١٢) بدليل أنك لو فكرت تقف على الرصيف وترفع لافتة مكتوب عليها أي حاجة إنشاالله (تسقط هيفاء وهبي)، فسوف تجد نفسك مشرّف في السجن ١٠ أو ١٥ سنة بسبب قانون التظاهر، قانون كبح الحريات، قانون (أخرس)، في حين أنك لو أمين شرطة وعملت ما عمل هتلر في الحرب العالمية،

(١٢) قانون ساكسونيا نسبة إلى مقطعة ساكسونيا الألمانية، وفيها ابتكرت حاكمة الولاية في القرون الوسطى قانون يقضي بمعاقبة الفقير بقطع رأسه، والغني بقطع رأس ظله، فيقف ويضرب الجلاد ظله بالسيف.

وقولت ما قال مالك في الخمر.. ولا هتلاقي حد يقولك عيب، لأن العيب على الجيب والجيب مخروم.

• • •

مدد يا سيدي العريان

كان ياما كان.. في سالف العصر والأوان.. كان عندنا جهاز إعلام محترم، وإعلاميين محترمين، أيام كان التليفزيون المصري عبارة عن القناة الأولى والقناة الثانية وكفى الله المؤمنين شر القتال، كان التليفزيون يبدأ برامجه الساعة ١١ صباحاً ما عدا الجمعة كان يبدأ الساعة ١٠ ببرنامج سينما الأطفال، وينتهي الساعة ١٢ مساء ما عدا الخميس كان ممكن يستمر للساعة الواحدة صباحاً مع برنامج تاكسي السهرة قبل أن يظهر برنامج صباح الخير يا مصر ليملء فترة الصباح، وبرنامج اليوم المفتوح ليملء فترة الظهيرة، ولو فتحت التليفزيون في أي

وقت غير هذه المواعيد لن تجد غير.. وششششش.

كان التليفزيون يبدأ إرساله ويختتمه بالقرآن الكريم، ثم السلام الوطني لمصر، وكانت القناة الأولى متخصصة في كل ما هو عربي، والقناة الثانية هي النافذة على العالم الغربي ببرامج عالم البحار، وتكنولوجيا، والعالم يغني، وبانوراما فرنسية، وزووم، وأوسكار، وتياترو، وجولة الكاميرا، والمسلسلات الأجنبية من أمثال الرجل الأخضر، ورجل من الأطلسي، وملائكة تشارلي، وفالكون كريست، والجرئ والجميلات، وغيرها.

المهم كان ضمن برامج التليفزيون المصري في ذلك الزمن الجميل برنامج اسمه (فن الباليه)، وحتى هذه اللحظة لا أدري لماذا كنت من عشاق هذا البرنامج؟ وكنت أنتظره من الأسبوع للأسبوع وأنا مُفعم بروعة بحيرة البجع، وكسّارة البندق. وفي يوم من ذات الأيام مرّ والدي رحمه الله بجواري وأنا مندمج مع البرنامج وسألني سؤال غريب.. «إزاي يا ابني الستات عرايا والرجال كاسيين؟»

ضحكت، وتوهمت أنه سؤال عن شيء بديهي كأن تسأل

مثلاً: ليه بناكل الفول بالعيش؟ أو ليه مش بنعمل عصير الجوافة ساندوتشات؟

وقتها كنت صبي حديث العهد بالحياة، وشاشة التليفزيون هي النافذة الوحيدة على المسلمات والبديهيات، وبما أن كل عروض البالية دائماً تظهر فيها المرأة عارية؛ إذن لو ظهرت في عرض من العروض كاسية فإن العرض يكون قد أخل بواحد من أركانه، وبالتالي سؤال والدي ليس في محله، وبديهي تكون المرأة عارية.

لكن لماذا بديهي؟ هل لأنه فن؟ وهل الفن معناه عري؟

تعال خطوة للوراء كي نكمل كلامنا عن زمن ما بعد نكسة ٦٧، وكيف وقع المجتمع في ازدواجية التشدد والانحلال، والفن الذي هو مرآة الشعوب كيف سجل هذه الازدواجية؟

في أواخر الستينات وأوائل السبعينيات قبل حرب أكتوبر ٧٣ كان المجتمع محبط، والمزاج العام يتجه نحو الهروب من فكرة الهزيمة وعدم تصديقها، وإذا كانت السينما هي ذاكرة الشعوب فهي سجلت للأجيال التالية الفترة بين نكسة يونيو

ونصر أكتوبر، وكان واضحاً جداً أن المجتمع يتجه للكوميدا والهلس بالضبط مثل الشخص الذي أصابته صدمة نفسية فيأخذ ذيله في أسنانه ويجري على نهر الملذات، على أقرب خمارة.. يشرب علشان ينسى.

قدمت السينما المصرية في هذه الفترة أفلام من أمثال (حلوة وشقية)، و(بابا عايز كده)، و(حواء على الطريق)، و(أشجع رجل في العالم)، و(كيف تسرق مليونير).. وغيرها، وكلها أفلام طواها النسيان تقريباً لأنها كانت مُسكنات موضعية بأوامر سيادية لتجنب الحديث عن الهزيمة، لكن للأمانة بعض المحترمين قدموا أفلام في نفس الفترة كانت تغريداً خارج السرب وتم حفرها في ذاكرة التاريخ، على سبيل المثال فيلم (شيء من الخوف) والذي اعترضت الرقابة على عرضه باعتبار أن ثروت أباظة كتب هذه الرواية بإسقاط سياسي وأن بطلها (عتريس) المقصود به الرئيس جمال عبد الناصر، لكن الفيلم تم عرضه بقرار من عبد الناصر نفسه، وفيلم (ثرثرة فوق النيل)، و(نحن لا نزرع الشوك)، و(غروب وشروق)، و(ميرامار)، و(الأرض)،

و(فجر الإسلام)، و(إمبراطورية ميم)، و(شيء في صدري)، و(قنديل أم هاشم)، و(الزوجة الثانية)، و(أغنية على الممر).

وبعد حرب أكتوبر عادت الروح المصرية للمصريين، وارتفعت قيم الانتماء والوطنية والفداء وحب العمل والعطاء لكن يا فرحة ما تمت أخدها السادات وطار.. سريعاً عاد المجتمع لثقافة الهلس ولكن بصورة أكثر فظاظة وكأن صناع السينما كانوا يمهدون الطريق لإقامة مولد سيدي العريان الذي بدأ بفيلم (أبي فوق الشجرة) واستمر بعد هجرة بعض المهتمين بالسينما لتصوير أفلامهم في لبنان وسوريا وكانت هوجة أفلام إباحية على رأسها فيلم (سيدة الأقمار السوداء)، وهو فيلم لبناني بطولة ناهد يسري، وحسين فهمي وعادل أدهم.

أي أنه بعد قرار الانفتاح الاقتصادي كثيرين من صناع السينما فتّحوا دماغهم وأنشأوا مقام سيدي العريان الذي أصبح له موريدين بالملايين، وبعدهم جاء جيل أبدع ونقل المقام داخل كل بيت على شاشة التليفزيون حتى في شهر رمضان، فأصبح المايوه شيء مألوف على الشاشات في البيوت، والقبلات

والأحضان والصدر الحنين وحتى الضرب على اللا مؤخدة، والقرطاس اللي عنيه تندب فيها دانة مدفع مبحلق علشان يتعلم وينزل الشارع يطبّق ما تعلمه عملي، ونرجع نلطم على الخدود من مشكلة التحرش، ولو قلت لأي من دراويش سيدي العريان هذا خطأ فأنتم تنحدرون بالمجتمع، يقول لك بكل بجاحة: «احنا بنجسد الواقع المصري».

المشكلة أنهم لا يفهمون أن الفن هو الذي يصنع ثقافة الجماهير، مثلما يوجه الإعلام الرأي العام، أي أن الفن هو ما يخلق الواقع ولا يجسده، والإعلام يُنشأ الرأي العام ولا يعرضه، وإن كنت حائراً في هذه المسئلة فحيرتك في محلها لأن العملية برمتها تشبه سؤال من أتي أولاً.. البيضة أم الفرخة؟ دراويش سيدي العريان يصنعون الواقع المصري بأيديهم، لأن تجسيد الواقع ليس معناه تعريته لكن محاولة تصحيحه كما فعل فيلم (أريد حلاً) والذي بسببه تم تعديل قانون الأحوال الشخصية، صحيح أن هذا التعديل جاء على دماغنا نحن معشر الرجال لكنه أنصف كثير من الولايا، وفيلم (جعلوني

مجرماً) والذي بسببه تم تعديل القانون بمحو السابقة الأولى لأي سجين من الفيش والتشبيه الجنائي حتى يستطيع ممارسة حياته بشكل طبيعي، وفيلم (كلمة شرف) والذي بسببه قامت مصلحة السجون بتعديل القوانين كي تسمح للسجين بزيارة أهله في ظروف معينة.

هذا هو تجسيد الواقع، والهدف منه تصحيح الأخطاء وحل مشاكل المجتمع، أما مولد سيدي العريان فالهدف منه ملء الكروش ورفع العروش على أكتاف القراطيس، لأن الفن ليس معناه عري، فلو أن راقصة البالية ارتدت خماراً سيظل البالية فن راقي، ولو أصبحت الأفلام والمسلسلات نظيفة من مشاهد العري والإباحة لزادت قيمتها الفنية، ولكن من أين تمتلء الكروش إذا لم نتمسح بالملايين في المقام؟.. ومدد يا سيدي العريان.

• • •

الكفيل المصري

تخيل..

فقط تخيل أن مصر هي دولة بترول، والدخل القومي في أعلى مستوياته، والجنيه المصري يساوي خمسة دولارات والأهم أنها خالية من اللصوص الكبار، وفي نفس الوقت دول الخليج هي دول فقيرة بلا بترول.. فقط تخيل ذلك، فما هي النتيجة؟

بلا شك ستكون العمالة في مصر وافدة من دول الخليج، وسوف يكون صاحب العمل المصري مضطراً لتطبيق نظام الكفالة للسيطرة على حركة الوفود.

وبجملة التخيلات.. هل تستطيع تخيل شكل الكفيل المصري؟

وهل سيكون بأي حال من الأحوال أفضل من الكفيل الخليجي؟

طبعاً المصري ابن حضارة سبعة آلاف عام، أي متحضر بالوراثة ولن يتعالى على العامل الخليجي الفقير، وسوف يعامله أفضل معاملة بأخلاق حضارته ورقيه.. أليس هذا صحيحاً؟ ولكن .. بلح، إن كان هذا هو وهمك فتعالى أحكي لك حكاية الكفيل المصري بالواقع المجرد وبلا تخيلات أو أوهام، وقبل كل شيء وكالعادة عد معي إلى الوراء قليلاً في الزمن إلى حقبة الأسرة العلوية في مصر منذ زمن محمد علي باشا وحتى فاروق الأول.

لم يكن العالم في ذلك الزمن يعرف البترول، وكانت دول الخليج العربي أفقر ما تكون، وأجهل ما تكون، والتكية المصرية والمعونات المصرية للمملكة السعودية ظلت شاهداً على ذلك حتى زمن عبد الناصر، وكسوة الكعبة التي كانت تخرج من مصر في محملها الشهير.

وبالمناسبة هذه ليست معايرة ولا تفاخر.. بلا وكسة، ولكنه

تاريخ مجرد.

المهم بعد انقلاب ١٩٥٢ بدأت مصر عصر الجمهورية، حكمها الرئيس محمد نجيب الذي وقع في صدام شديد مع باقي الضباط بسبب رغبته بتسليم السلطة إلى المدنيين، وإقامة حياة نيابية، وإعادة الجيش إلى سكناته بعدما أدى مهمته وطهر مصر من الفساد والمفسدين، لكن عبد الناصر وباقي الضباط رفضوا هذا التخريف من وجهة نظرهم وعزلوا نجيب من منصبه وحددوا إقامته، أي ببساطة سجنوه وعزلوه عن الحياة.

فمن كانوا هؤلاء الضباط؟ ومن أي طبقة اجتماعية خرجوا؟ وما علاقتهم بحكاية الكفيل المصري؟..

هؤلاء الضباط كانوا من أبناء الفلاحين والطبقة المتوسطة، وبدون الخوض في تفاصيل كثيرة وباختصار كانت لديهم عقدة نقص من كونهم شبعوا بعد جوع، ودانت لهم الدنيا بعد جفاء، وتسلطوا على مصر كالجراد، وما زاد الطين بلة أن القراطيس انخدعوا بخطابات عبد الناصر الجهورية، وشخصيته

الكاريزمية، وإعلام الطبل والزمامير، وليس صحيحاً أن عبد الناصر جعل للمصري كرامة، لكن الحقيقة أن كرامة المصري في ذلك الزمن كانت امتداداً لكرامته منذ أيام الملكية بسبب قوة مصر الاقتصادية، يعني ببساطة.. معاك قرش، تساوى قرش.

انتظر المصريون الرخاء من عبد الناصر وشلته ونسوا القول المنسوب للإمام عليّ: «لا تطلب الخير من بطون جاعت ثم شبعت لأن الشح باقٍ فيها، ولكن اطلب الخير من بطون شبعت ثم جاعت لأن الخير باقٍ فيها»

وجاء الرخاء للمصريين عبارة عن انهيار اقتصادي، وقطيعة مع أغلب الأشقاء العرب، وحروب متتالية، ودولة بوليسية، وكبت للحريات، ومعتقلات، وسجون، وظلم، وجوع.. ولمّا جاء السادات للسلطة تسارعت وتيرة الانهيار لأن السادات خرج من طبقة مُعدمة فكان صاحب أكبر عقدة نقص، ولا أدل على ذلك من مظهره وهندامه الذي استوحى تصميمه غالباً من الزيّ العسكري لألمانيا النازية، وعصا الإنكشارية

الشهيرة التي كانت تلزم يده وكأنه إمبراطور، وأولاده وزوجته الذين تعاملوا مع مصر باعتبارها وسيتة أبوهم، وعاثوا فيها فساداً ومعهم الأقرباء والمقربون والمقربون من المقربون.. وهكذا دواليك حتى أصبح المصريون مستعبدين في أرضهم وفي بلادهم، واستمر جوعهم، وزادت عقد نقصهم التي استمدوها من كبيرهم.

وبعد السادات جاء مبارك عبارة عن صورة من السادات لأنه خرج من نفس الطبقة يحمل نفس عقد النقص فاستمر الانهيار على كافة المستويات وهذا أمر بديهي، فإذا كان الأساس فاسد مختل فكيف يكون باقي البناء معافاً صحيحاً؟ وإذا كانت جذور الشجرة عطنة فكيف تكون الثمرة يانعة؟ وإذا كان رب البيت بالدف ضارباً، فكيف لا يكون شيمة أهل البيت كلهم الرقص؟

ضاقت مصر على أهلها لاسيما أصحاب العقول فهربوا منها.. ولكن إلى أين؟

في تلك الأثناء كانت دول الخليج تتبدل، وتتغير التراكيب

السكانية فيها، وتتحول من الفقر المدقع إلى الغنى الفاحش ورفاهية البترول، وكان حق عليهم أن تتبدل عقول الأجيال التالية ففتحت تلك الدول ذراعيها للمصريين ليس لسواد عيونهم، ولكن لأنهم كانوا كنز غفل عنه صاحبه المُعقد، كنز من العلم والثقافة، كنز من القوى العاملة المدربة، كنز من الحرفيين وأصحاب المهارات استفادت منه دول الخليج خير استفادة ولازالت، والنتيجة خربت مصر وبقى على تلها أصحاب الكروش المعقدين نفسياً، ونهضت دول الخليج اقتصادياً وثقافياً. والأدلة على ذلك كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر أن مجلة العربي الكويتية – وهي تقريباً القبلة الأولى للمثقفين في الوطن العربي – كان أول رئيسي تحرير لها مصريين ترأسوا تحريرها لمدة ٢٤ سنة وهما الدكتور أحمد زكي، والأستاذ أحمد بهاء الدين، وأنه من النادر، بل من الفلتات أن تخلو جامعة أو مدرسة بالخليج من دكتور أو مدرس مصري، هذا غير الكفاءات في مجال الهندسة والصيدلة والطب، والعمالة المدربة، والحرفيين، وجميعهم يعملون تحت

نظام الكفالة، ولمن لا يعرف هذا النظام فهو باختصار شديد صورة عصرية لنظام العبودية، يخضع فيه المرء لسيد خليجي يرى في المصري صورة لماضيه هو أيام كان يتسول من المصريين، ولك أن تتخيل كيف تكون المعاملة لهذا المصري الذي جار عليه الزمن وأصبح هو العبد والمتسول، وهذا هو حال الكفيل الخليجي.. اللهم إلا من رحم ربي.

أما من رفض هذا النظام، من رفض أن يصبح عبداً وقال أعيش وأعمل في بلدي حراً بكرامتي.. وقع دون دراية تحت يد كفيل مصري لا يختلف بأي حال من الأحوال عن الكفيل الخليجي.

قد يكون هذا الكفيل المصري مديره، أو رئيسه، أو صاحب العمل الذي ورث عن رب البيت نفس عقد النقص التي ليس لها علاج إلا أن يشعر في داخله بأنه السيد المالك لعبيد يستطيع أن يتحكم في أرزاقهم ومقدراتهم، يشعر في داخله بانشراح حين يرى مرؤسيه أذلاء لقمة العيش، يشعر براحة نفسية حين يحجب عنهم سبل الراحة والرفاهية، حين يغلق

النوافذ ويراهم يختنقون، حين يجعل منهم شماعات يعلّق عليها فشله، أو يختلق لهم أسباب الفشل، حين يصبّ فوقهم كل عقد نقصه، ويتعالى عليهم أمام ضيوفه وكانه يقول للضيوف بنفس لهجة الباز أفندي في فيلم ابن حميدو.. شوفوا دول عبيد شغالين عندي أنا.. آه.

فقبل أن تبدأ حياتك العملية في سوق العمل أعد ضبط بوصلة عقلك فالكفيل المصري أسوأ من الخليجي الذي يُعطيك المال ويحكم فيك ويتحكم، أما المصري فهو قرطاس فاشل مُعقد يبيع ويشترى فيك بلقمتك.. اللهم إلا من رحم ربي.

• • •

ستديو سوق العبور[١٣]

الله سبحانه وتعالى قال: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ»[١٤]، وهي حقيقة ثابتة، وواقع لا يقبل الشك، ففي يوم من الأيام كان سكان أمريكا يعيشون في الكهوف وفي نفس الزمن كان المصريون يبنون الأهرامات، في يوم من الأيام كان حكم الكنيسة في أوروبا يقضي بإعدام المفكرين والفلاسفة والعلماء، والعامة يسخرون من جاليليو وفي نفس الزمن كان علماء العرب وشعرائها ومفكريها هم نجوم المجتمع وحاشية الحاكم والسلطان ومستشاريه.

(١٣) سوق العبور هو سوق ضخم للخضار الفاكهة والأسماك على طريق مصر الاسماعيلية الصحراوي.

(١٤) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

وجاء يوم طلعت فيه أمريكا القمر ونحن نعيش في المقابر، جاء يوم تنهض أوروبا بآلاف المفكرين والفلاسفة والعلماء وليس عندنا عالم يوحد ربنا.. لكن الحمد لله عندنا عوالم ورقاصين وطبالين وزمارين.

جاء يوم تكون القوى الناعمة[١٥] في أوروبا هم جان جاك رسو، وإيمانويل كانظ، وديكارت، وسارتر، وهيجل، وانجلز، وماركس، وفرويد، وشوبنهور، ونتشه، وسومرست موم، وجوته، وفولبير، وموليير، والقوى الناعمة في مصر هم يسرا وإلهام شاهين.

ولأن الفن هو مرآة الشعوب، فهو يخضع لنفس الحقيقة الثابتة بأن الأيام دول، ففي أيام عبده الحامولي والست ألمظ كانت الأغاني والموسيقى تخضع بشكل حازم للمقامات العربية الأصيلة – الحجاز والصبا والبياتي – وحتى النهاوند الذي اعتبره الفنان محمد شوقي في فيلم ألمظ وعبده الحامولي فسق وفجور وبدعة جديدة جاءت من استنبول وخروج عن

(١٥) القوة الناعمة Soft Power هو مفهوم ابتكره جوزيف ناي من جامعة هارفارد لوصف القدرة على الجذب دون الاكراه أو استخدام القوة كوسيلة للاقناع.

المقامات العربية الرصينة، هو نفسه مقام عربي مُبهج ومُشبع للروح.

ثم جاء زمن الست منيرة المهدية بأغاني الدلع والشخلعة .. وأوعى تكلمني بابا جاي ورايا، ومعها طبعاً الراقصة الشهيرة الست بديعة مصابني. لكن سرعان ما ظهر على الساحة فنان عجيب وغريب كأنه جاء من الفضاء، عاش على كوكب الأرض ٣١ سنة فقط، لكنه أحدث إنقلاب في الموسيقى العربية، وعمل تجديد ظل مُلهم لكل الموسيقيين العظام من بعده، ومازالت أغانيه وموسيقاه يعرفها الكثيرون رغم أنه رحل عن الحياة منذ تقريباً مائة سنة، وهو سيد درويش(١٦).

يعني الموسيقى والغناء انحدرت من رصانة ورقي إلى إنحطاط ثم عادت للرصانة مرة أخرى، لكن بعد سيد درويش كان نجم المونولوج بدأ يلمع، وبدأ يكون له جمهور هو غالباً عبارة عن السكارى في الملاهي الليلية والخمارات، ومع ذلك كان المنولوج عبارة عن مجموعة من الحِكم والمواعظ، وفي نفس زمن ازدهار المونولوج ظهر للوجود مجموعة من المطربين

(١٦) ولد سيد درويش في عام ١٨٩٢، ورحل بالتحديد في ١٠ سبتمبر ١٩٢٣.

والشعراء والموسيقيين من النادر جداً وجودهم في زمان واحد ومكان واحد على رأسهم أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، وفريد الأطرش، وأسمهان، وليلى مراد، وبعدهم عبد الحليم، ومحمد فوزي، وشادية، وفايزة أحمد، وماهر العطار، ونجاة، وغيرهم عشرات. وكان أحمد رامي، والشيخ زكريا أحمد، ورياض السنباطي، ومحمد القصبجي، وبعدهم بليغ حمدي .. وغيرهم عشرات وعشرات. كوكبة غريبة لا يعرف أحد كيف تجمعت في زمان واحد ومكان واحد؟

وصعد الفن للسماء السابعة بأغاني وموسيقى تعيش حتى اليوم وسوف تعيش طويلاً، حتى مونولوجات اسماعيل يس، ومحمود شكوكو، ونعيمة عاكف، وثريا حلمي كانت عبارة عن حلويات لذيذة المذاق بعد وجبات دسمة.

ودارت الأيام، وجاء زمن أحمد عدوية.. وهز يا حب هز، وسلامتها أم حسن، وانحدر الفن في دورته المستمرة لكنه رجع للصعود نسبياً مع جيل محترم إلى حد ما هو جيل هاني شاكر، وعماد عبد الحليم، ومدحت صالح - أيام ما كان

بيغني- وعمر فتحي، وميادة الحناوي، وأنغام في بدايتها.

حتى ذلك الزمن كان الفن عبارة عن شخص يمر بمراحل حياة كاملة بين صحة وعافية، ومرض وعلة، وصحوة وغيبوبة لكن بداية من أواخر التسعينات.. طب مات، من انهيار لانهيار، ومن سيء لأسوء، من جلجلي جلجلا وحلال عليك، لظاهرة المؤلف والملحن والمطرب (٣×١) وإن أنكر الأصوات، للمهرجانات الشعبية اللي هي عبارة عن خبط حلل ومواعين وما فيه كلمة توحد ربنا ممكن تفهمها.

لكن كانت أغرب ظاهرة في فترة موت الموسيقى والغناء المصري هي ظاهرة سوق العبور، وتحول المطربين – إن كان ممكن نطلق عليهم لفظ مطربين – لتجار خضار وفاكهة وأسماك.. يقول التاجر الأول:

«فيه لحم تاكله، ولحم ياكلك، لحم تشمه، لحم يشمك، لحم تقرف منه، لحم يكفيك شره.. ينفع في شتا أو صيف.. العنب العنب العنب».

وعلشان نفهم علاقة العنب باللحم مؤكد نكون محتاجين خبير فك شيفرات ماسونية.

يرد عليه التاجر الثاني ويقول:

«أنا جبت الميزان أوزن صاحبي طلع الميزان ناقص.. أنا قولت العيب من الميزان بس الميزان مش ناقص.. السمك السمك السمك».

يعني يوزن صاحبه وبعدين يقول السمك! .. جايز يكون مصاحب قرموط.

أما التاجر الثالث فيقول: «طعمه جميل ولذيذ.. القصب القصب القصب».

وده طبعاً رئيس جمعية المص.

وغيره اللي يقول: «بقيت أحب الكسكسي وخلاص بقيت أكله»..

وطبعاً بعد ما تخلصّ التسويقة من سوق العبور هتنادي على بتاع الحنطور المحنطر علشان يوصلك، وتلاقي كبير السوق منتظرك ومبسوط بيك جداً، وبيقولك.. «بحبك يا حمار».

ارجع لمراحل الصعود والانهيار كلها من البداية وسوف تكتشف أنها مرتبطة بصورة أو بأخرى بصعود وانهيار اقتصاد الدولة، فهو مفتاح السر لصعود وانهيار القيم والأخلاق لأن الفن هو مزاج عام مثل الرأي العام تماماً، فإذا كان الشعب حاضراً واعياً مُدركاً فإن أنصاف وأرباع الفنانين تموت تلقائياً، وإذا كان الشعب مُغيباً، تائهاً، ضالاً عبارة عن رهط من القراطيس فإن الفنان الحقيقي، والكاتب الحقيقي، والإعلامي الحقيقي، والمفكر الحقيقي، والمثقف الحقيقي جميعهم يموتون تلقائياً كأنهم بشر على سطح المريخ، أو مريخيين على سطح الأرض لا تتوافر لهم فرصة البقاء والحياة، ومن هنا جاء القول بأن الفن مرآة الشعوب.

بص بقى في المرايه.. وقولي شايف إيه؟

• • •

الشيخ شوباش، سلفي ستايل

أهل التجارة والعارفين بقواعد الاستثمار الناجح يعرفون جيداً الفرق بين الثقفقة الرابحة والأخرى الخاسرة، هم لا يضربون الودع ولا يذهبون إلى الشيخة مستكة لتفتح لهم المندل وتقرأ الطالع والنازل، ولكن المسألة برمتها تعتمد على مجموعة من الحسابات والاستقراءات، ثم نسبة ضئيلة من قراءة المستقبل بشكل علمي بعيداً عن الخرافات والخزعبلات.

والثقفقات التجارية لها أشكال وأنواع كثيرة، من مضاربات البورصة، والتبدادلات المالية، والتصدير والاستيراد، وحتى بيع الظل في زجاجات، ومن أراد النجاح في هذا النوع الأخير من

التجارة فليس عليه إلا تطبيق بعض القواعد كأن يحفظ آيتين من كتاب الله، وحديثين عن رسول الله، ويُعفي لحيته.. وكلما طالت واستطالت انهمر الزرق.

وهكذا تصبح المساجد استثمارية؟ ..لا

الواقع أن فكرة المساجد الاستثمارية بدأت قبل حملة النفاق التي شنها المتأسلمون والساعون وراء الحصول على المال والشخصية والمكانة الاجتماعية من وراء التجارة في بورصة المساجد، أجل بدأت قبل ذلك بكثير، بكثير جدا.. نقول منذ عصر الفراعنة، حسنا لنكون أكثر واقعية، إن الفكرة الأساسية للمساجد الاستثمارية اتكأت في مجملها على فكرة المعبد الاستثماري، والكنيسة الاستثمارية.

وبدون الخوض في تفاصيل كثيرة نقول بأن البشر الذين حملوا على أعناقهم مهمة الدفاع عن الدين ونشره كانوا هم أنفسهم أول من تاجر به، من الكهنة الفراعنة، وأحبار اليهود، وحتى القساوسة الذين دفعوا بأوروبا كلها إلى عصر إظلام هو عصر الحكم الكنسي، أو عصر الإظلام الكنسي.

والإسلام دخل مصر بعد فتح عمرو بن العاص لها عام ٦٤١م، ومن يومها ومصر دولة تدين بالإسلام الذي جاء به النبي محمد صلي الله عليه وسلم، ومثلها مثل باقي دول العالم الإسلامي ضربتها أحقاب محن وفتن، وتنوع حكامها من الوالي إلى المملوك والباشا والخديوي والملك والسلطان والرئيس.

تغيرت المقاعد وتبدلت دور الحكم وتبدت الأحكام والأعراف وحتى اللهجة نفسها. تنوعت التراكيب السكانية لأهل مصر، واختلفت نظراتهم إلى العيب والحرام، وأحكامهم على الأمور فانقلبت الشخصية المصرية انقلابات عنيفة لكن الشيء الوحيد الذي بقى محافظاً على هيكله الرئيسي هو الدين الحنيف.

كل هذه الأحقاب والتواريخ منذ دخول مصر تحت عباءة الدين والحكم الإسلامي لم تغير جوهر هذا الشعب حتى شاء القدر أن يتسلم مقاليد الحكم أول رئيس منتخب بإرادة شعبية وإرادة إلاهية جاءت به إلى سدة الحكم رغماً عن أنفه

ورغما عن أنف الشعب، وبدأ الناس يمارسون نوعاً جديداً من الحرية المطلقة أقرب إلى الفوضى.

ففي الجوار من محل اقامتي بالقاهرة التي تغربت إليها يوجد أحد المساجد الاستثمارية، وربما تمر سنوات عمري كله ولا أنسى هذا الشيخ ذو الوجه الأبيض المستدير واللحية الصهباء، لا أدري لماذا تذكرني رؤيته بالملائكة رغم أني لم أرى أحدهم؟ ولكن على النقيض من هذا الوصف هناك في الأمر شيء محير.

هذا الرجل وبعد صلاة العشاء يلتقم الميكروفون لكنه لا يلقي درساً توعوياً، أو يذكر الناس ببعض فضائل الإسلام أو صفات نبيه، ولكنه يبدأ في حديث مسهب حول نشاطات الجمعية الخيرية التي تتولى أمور المسجد ويدعوا الناس للتبرع ويشكر فلان وعيلان وترتان على جهودهم ولا يبقى سوى أن يقول: شوووواباش حبايب العريس.. ومحاسيب العروسة.. وسمعني سلام اتبرع بجنيه وبكره تلاقيه.

وهكذا تحوّل منبر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وكالة

دعايا وإعلان، وتحول الدين إلى تجارة.. والتجارة أنواع آخرها التجارة مع الله التي يدّعون أنهم قائمون عليها لتزييف عقل قراطيس كثيرة تتاجر هي الأخرى – سواء عن علم أو عن جهل – في بورصة المساجد.

ولكن لماذا يتجه شاب في كامل قواه العقلية لهذا النوع من التجارة؟

في أيام السادات (الرئيس المؤمن) ضربت المجتمع المصري قنبلة ذرية أخلاقية، كان الناس قد أفاقوا تماماً من وهم عبد الناصر (الزعيم المُلهم)، وانتهت أسطورة الاشتراكية، وبدأ عصر الانفتاح الرأسمالي فتآكلت الطبقة المتوسطة التي أفرزت جيل ناقم على المجتمع، جيل من أولاد الغلابة تعلّموا وأكتشفوا أن العلم ليس له قيمة، وأن الناس تقف احتراماً لذوي النفوذ والمال، وبما أن هذا الجيل لا يملك هذا أو ذاك فقد اتجهوا إلى الدين ليحتموا به فكانوا أرضاً خصبة وقراطيس من السهل طيها تحت لواء أي أفكار أو معتقدات، وبكل ما بداخلهم

من عقد نفسية وكراهية للمجتمع الفاسد تحولوا لسلاح ضد الدولة والنظام.

وسواء كانوا على حق أم على باطل، فالنتيجة أنهم خلقوا أسطورة الإرهاب والجماعات التكفيرية التي كان هدفها المُعلن حكم مصر لإقامة الدين، وهدفها الخفي تعويض عقد النقص.

ولمّا كان هذا الهدف صعب المنال فقد تحولوا إلى التجارة بالدين ليحصلوا على المكانة الاجتماعية التي افتقدوها، وما علي الفرد منهم سوى إعفاء اللحية لتقول له الناس.. يا شيخ فلان.

في العشرين سنة الأخيرة لأبد وأنك لاحظت تلك المساجد الاستثمارية ولو كنت مسلماً فأنت باحتمال كبير قد صليت في أحدها، تلك المساجد التي تحتل الدور الأرضي من عمارة سكنية وبذلك يستفيد المالك بإعفاءه من الضرائب العقارية أو من جزء منها، وكانت هذه أول لمحة لفكرة المسجد

الاستثماري التي أعقبها فيما بعد فكرة الجمعيات الخيرية التي يصح تسميتها بالاستثمارية أيضاً، وقبلهما شركات توظيف الأموال الإسلامية، ثم الصكوك الإسلامية، وعليه تم إلصاق صفة الدين على كل نشاط تجاري يرمي صاحبه للتربح حتى أصبحت عباءة الدين الفضفاضة ملجأ للمتكالبين على مقاعد الحكم والمطبلين له فصار الدين مجرد عباءة جوفاء، وصارت المحنة الكبري للدين الإسلامي هي أن أنصاره هم من يحاربونه. وهكذا كلما سمعت أحد هؤلاء التجار الذين يتشدقون دوماً بكلمات الدين قلت في سري أو في جهري: مدد يا شيخ شوباش.

• • •

بركة يا جامع

لو سألت أي مصري عن سبب تسمية محافظة كفر الشيخ بهذا الاسم فسوف يجاوبك بخفة الدم المعهودة بأن السبب أن أهلها (كفّروا) الشيخ، فهل تعرف كيف جعلوا الشيخ يكفر؟ بأن صلّوا خلفه إماماً عشرين سنة ثم سألوه.. يا عم الشيخ أنت مسلم وللاّ مسيحي؟

طبعاً كل هذا هزل وسخرية لا تمت للحقيقة بصلة[١٧]، لكن لو سألتك بجد عما تعرف عن الكُفر؟ فهل تستطيع الإجابة؟ وماذا لو سألتك – بأعتبارك مسلم – هل المسيحي كافر أم

(١٧) سُميت محافظة كفر الشيخ نسبة إلى الشيخ طلحة أبي سعيد التلمساني، وهو أحد أعلام الصوفية وخال الشيخ أحمد البدوي صاحب المقام الشهير بمدينة طنطا.

لا؟

المسيحي كافر لا شك في ذلك بنص القرآن في موضعين لا يقبلا الشك.. الأول قول الله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»، والثاني قوله جل وعلا: «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ»[١٨]، هذه الآيات لا تقبل الشك ولكنها تقبل التأويل، وبالتالي حتى نفهمها علينا أولاً معرفة معنى الكفر، ومن هو الكافر؟ وبماذا كفر؟

فلو قلت لك بأن الشيطان كافر.. فهذا صحيح، لكن لو قلت لك بأن الشيطان كافر بالله بمعنى منكر لوجود الله.. فهذا خطأ، كيف يكفر بالله ويُنكر وجوده وقد دار بينه وبين الله تعالى حوار طويل عريض؟! إذن هو لم يكفر بوجود الله ولكنه أولاً كفر أنعم الله عليه أي جحدها، ثم كفر الحق بأن أخفاه.. وهذا هو معنى الكفر، ففي اللغة الكافر هو من يكفر شيء أي يخفيه، فالفلاح كافر لأنه يكفر الحبة في الأرض، ومنها جاء اللفظ الإنجليزي Cover بمعني غطاء.

(١٨) سورة المائدة، الآية ٧٢ والآية ٧٣.

إذن المسيحي هو كافر لأنه أخفى الحق، ولكن هل المسيحي الذي يعيش بيننا اليوم هو المقصود بالآيات؟ أم المقصود هم اليهود والفريسيين الذين حاربوا السيد المسيح ودعوته وكفروا ما جاء به من الحق، وقال فيهم: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون!، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تأكلون بيوت الأرامل ولعلة تطيلون صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً ومتى حصل تصنعونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا..... يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خرابا! لاني أقول لكم: أنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب!».[١٩]

(١٩) إنجيل متى، إصحاح ٢٣، الآيات ١٣-٣٧

ولو تأملت الآيات بسورة المائدة جيداً لاكتشفت أن اللفظ (قالوا) جاء بصيغة الماضي وليس المضارع.

دعني أسألك سؤال آخر – باعتبارك أيضاً مسلم – إذا رأيت رجل يغرق وتعلم أنه مسيحي.. فهل ستنقذه؟ أعتقد أنك ستفعل ذلك، وإذا كان مسلم؛ فهل ستنقذه؟ أعتقد أيضاً أنك ستفعل.

وإذا جاء رجل مسلم يتهجم عليك.. فهل ستدافع عن نفسك؟ بالطبع ستفعل، وماذا لو كان ذلك الرجل مسيحي.. هل ستدافع عن نفسك؟ بالطبع ستفعل..

هل تعلم لماذا لم يختلف رد فعلك سواء كنت تنقذ أو تقاتل رجل مسلم أو رجل مسيحي؟ لأن الإنسانية تسبق الأديان، والأديان جاءت لصلاح الإنسانية، والله تعالى حين خلق آدم قال: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً»[٢٠] لأن الهدف الأول هو إعمار الأرض.. ثم عبادة الله الواحد الأحد بالاختيار الكامل، ومعرفته بالدليل والعقل معاً.

(٢٠) سورة البقرة، الآية ٣٠

إذن الشيطان ليس كافراً بوجود الله، والمسيحي ليس كافراً بوجود الله، حتى أهل قريش الذين كانوا يعبدون الأصنام لم يكفروا بوجود الله حيث قال الله تعالى فيهم: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»[٢١]، وقالوا عن عبادتهم للحجر: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى»[٢٢]، لذلك فالكافر الحقيقي هو القرطاس الكبير الذي يملء صدره بالهواء ويقول بكل فخر.. أنا مُلحد، وأن هذا الكون ليس له خالق، والأديان ما هي إلا خرافة واختراع استخدمه الخاصة للسيطرة والتحكم في عقول العامة، ثم يسوق لك الأدلة بالعشرات على أقواله، والنماذج بالعشرات على شيوخ فاسدون، وقساوسة فاسدون، وأحبار فاسدون، ومعه كل الحق مع كل دليل ونموذج، معه الحق فقط لأنه قرطاس.. وليس على القرطاس حرج.

فسدنة الإلحاد في الغرب توقفوا تماماً عن نغمة (ليس الله موجود) لأنهم تأكدوا أن حربهم لإثبات ذلك وحججهم

(٢١) سورة العنكبوت الآية ٦١.

(٢٢) سورة الزمر الآية ٣.

كلها فارغة، وأن أصغر طفل يستطيع التدليل على وجود الله بأبسط الأدلة، أما الملحدين العرب فمازالوا يعيشون في وهم عدم وجود إله، ومهما حاولت إقناعهم فسوف تفشل، إذ كيف السبيل إلى إقناع من يؤمن إيمان اليقين بأن للدائرة أضلاع؟ أو أن الأرض مسطحة وليست كروية، وأن الشمس تدور حولها؟

الغريب أن أغلب الملحدين متعلمين جيداً، ومثقفين، والأغرب أنهم كانوا متدينين، فكيف يتحول العقل من النقيض إلى النقيض؟ أي قوة تستطيع فعل ذلك؟

إذا قلت أنه الشيطان فهذه نصف الإجابة لأن كيد الشيطان ضعيف وليس له على الإنسان سلطان، ولكن سلطان الإنسان هو عقله الذي قد ينعم أو يشقى به كما قال المتنبي: «ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله .. وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعمُ»، ومنه قول العامة بأن المجانين في نعيم.

ولكي نحاول معرفة القوة التي قلبت عقل إنسان متعلم ومثقف ومتدين لابد أن نرجع بالزمن كالعادة.. ولكن هذه

المرة سنسافر مسافة شاسعة.

في الماضي البعيد، البعيد جداً جداً كان الإنسان يعرف الله ويعبده، وتعاقبت القرون ونسى الإنسان من أين جاء؟ ومن أتى به إلى الحياة؟ فراح يبحث بعقله حتى أهتدى إلى أن هناك إله خلقه وخلق الحياة. لم يستطع الشيطان حتى هذه اللحظة أن يتدخل لكنه ألقى إلى الإنسان بأسئلة أعقد.. من يكون هذا الإله؟ وأين هو؟ وكيف شكله؟

لم تكن إجابة هذه الأسئلة سهلة في ذلك الزمن أو في أي زمن، وهي الأسئلة التي لعب عليها الشيطان لعبته الكبيرة فدلّ الناس على عبادة الأصنام بخطته الطويلة المعروفة بأن نصحهم بصناعة تماثيل لرجال صالحون ماتوا في الماضي وهم.. ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، ولمّا انقضت أجيال وأجيال ونسى الناس من يكون هؤلاء.. ضرب الشيطان ضربته وأجاب على الأسئلة المحيرة بأن أخبر الناس بأن هؤلاء هم آلهة.. فعبدوهم، لكن الله أرسل الرُسل حتى يعود الناس إلى الطريق الحق، فعاد البعض وضل البعض.

وبعدما نضج عقل البشرية إلى الحد الذي نعرفه اليوم مازال البعض أجهل من الإنسان القديم في عصور ما قبل التاريخ الذي اهتدى بعقله الضعيف إلى أن هناك إله صنع كل هذا، وأجهل من الإعرابي الذي قال بأن «الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟» فمن المستحيل أن يُخلق الشيء من العدم، وكل مخلوق لابد له من خالق، وكل موجود لابد له من واجد، وعند هذا الحد يمارس الشيطان لعبته من جديد، فإذا كان الإله الواجد هو الله تعالى وهو في كل مكان وليس كمثله شيء إذن فقد تم الإجابة على الأسئلة القديمة بقليل من الإيمان ولابد من طرح أسئلة جديدة..

بما أن لكل موجود واجد؛ فمن أوجد الواجد؟ من أوجد الله تعالى؟ ولماذا يعذبنا الله إذا كان قد كتب أعمالنا؟ فما نحن إلا ممثلون يُجسدون سيناريو كتب مسبقاً.. وأمثال هذه الأسئلة التعجيزية كثيرة، ولكن بقليل من التفكير تصبح أسئلة هشة

لا تعجز أمامها سوى العقول الهشة أيضاً، فسلسلة الواجد والموجود لابد أن تنتهي حتماً بواجد أول، والله تعالى لم يكتب أعمالنا لكي نؤديها، ولكن ولأنه تعالى أحاط بكل شيء علماً، ولأنه تعالى خالق الزمن نفسه فهو خارج حدوده وبالتالي ما كتبه الله هو ماضٍ حدث بالفعل في علم الله لكنه بالنسبة لنا حاضر ومستقبل، أي أن الحياة انتهت تماماً وكُتبت الأعمال في علم الله قبل أن نعيشها بعلمنا المحدود.

إذن الشيطان هو من فعل الأفاعيل، وقلب المفاهيم، وطرح الأسئلة التي لها طريق واحد للإجابة بيد أنه طريق يضل فيه الحادي ويحار فيه الدليل، لكن الشيطان لا يستطيع قلب العقل بل العقل ينقلب من تلقاء نفسه لأن الباحث عن الحق لابد وأن يكون متسلحاً بالعقل الحصيف والحكمة وفيه قال الله تعالى:«وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ»(٢٣) فقبل أن يخدعك أحد بوهم الإلحاد وأنه تحرر، حاول أن

(٢٣) سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

تفهم بأن العبودية لله هي الحرية الكاملة، وأن الإلحاد ظاهره الحرية لكن باطنه الضياع والشتات، ولك أن تتخيل سفينة بلا ربان أو بوصلة في عرض البحر.. ولله المثل الأعلى.

بقي أخيراً الاعتراف بأني في هذا الموضوع أوقعت نفسي في حقل ألغام، فلست عالماً ولكني فقط حاولت التفكير بصوت عالى، وإلى كل قرطاس يفتخر بإلحاده ويظن نفسه انتقص من الإسلام أو المسيحية أقول بكل صدق.. بركة يا جامع، أما أهل كفر الشيخ.. فلم يكفّروا الشيخ، ولكنهم ناس طيبين أوي يا خال.

• • •

أنفار كامبورس

الملاهي هي اسم على مسمى، ومنها ملاهي الألعاب، والملاهي الليلية، ووظيفتها هي اللهو، وبما أن هناك فعل وهو اللهو، وهناك أداة للفعل وهي الملاهي؛ إذن لابد أن يكون هناك شيء نستخدم الملاهي للهو عنه.

وقال أجدادنا.. «الدنيا تلاهي» لكنهم لم يقولوا عماذا تلهي؟ قد تلهي عن صلة الرحم والتزاور، أو تلهي عن ذكر الله والتدبر والتأمل، أو تلهي عن الشأن العام. أما الملاهي فهي تلاهي عن الدنيا التلاهي، عن هموم الحياة ومشاكلها

وصراعاتها التي لا تنتهي. فكم من عزيز غاب ظننا بعده الدنيا أقفلت أبوابها، لكن الزمن أبرع الأطباء والنسيان نعمه أنعم الله بها على البشر لينسوا الراحلون والغائبون.. والبعيد عن العين بعيد عن القلب.

وقد لخّص نجيب محفوظ رحمه الله مشكلة المجتمع المصري بجملة عبقرية ترددت كثيراً في روايتة (أولاد حارتنا)، قال: آفة حارتنا النسيان.

كم من القضايا والأزمات اشتعل لها الرأي العام والناس نامت عليها وهي نار جهنم وصحيت وهي رماد؟ والسبب أن آفة حارتنا النسيان، هذه الآفة تم تخليقها من البداية في معمل الحكومات المتعاقبة منذ زمن الفراعنة مروراً بكل العصور والأحقاب التاريخية وانتهاء بعصر الجمهورية الفحيت.

أصبح الرأي العام المصري قادراً على خلق زعيم والهتاف بحياته كما كان الأجداد يهتفون للفتوة المنتصر في صراع الفتوات.. «اسم الله عليه اسم الله عليه»، اليوم يسقط يسقط حكم العسكر، وفي اليوم التالي.. حكم العسكر كحك بسكر،

النهارده تقوم الدنيا علي تعرية فتاة أو سحل مواطن، وبكره الخبر الشاغل للناس هو نتيجة مباراة الأهلي والزمالك، النهاردة أزمة البنزين والعيش وبكره صافيناز بترقص بعلم مصر، النهاردة اسكندرية غرقت بالمطر، وبكره اسكندرية ليه؟ لذلك فليس هناك شعب على وجه الأرض أعرف بالتلاهي من المصريين، فالحياة بالنسبة لنصفهم بساط سحرى على جناح الكيوف.. والكيوف أنواع، وبالنسبة للنصف الآخر هي أسد يجري ورائهم، وبناء عليه فإن الحياة في مصر لابد أن تنتهي بالسكة القلبية، جري.. جرى، ليس هناك وقت حتى للنظر في المرآة لدرجة أن المصري حين يرضى عليه الله وينظر فيها يقول لنفسه: «أنا شوفت الوش ده فين قبل كده؟»، ولا يعرف أنه بحاجة لزيارة الحلاق إلا من نظرات الناس حين ترميه شذراً وكأنه درويش من دراويش سيدي زعبولا.

والإنسان منذ قديم الأزل يختلق لنفسه سبل اللهو والتسلية، غير أن أهم اختراع توصل إليه البشر في ذلك المضمار هو.. كرة القدم، فعلى المقاهي أصبح مألوفاً أن ترى العشرات

تراصوا لمتابعة مبارة بين الأهلى والزمالك، وهذا بديهي فالمصريون والبشر عامة مولعون بفكرة الانتماء إلى كيان ما أو مجموعة ما، يولد المصري إما مسلم أو مسيحي، فلاح أو صعيدي، إخوان أو سيساوي، أهلاوي أو زمالكاوي، يهتفون، يتشاجرون، يحللون المباريات وينخرطون في حوار ونقاش حول التمريرات، وقرارات الحكم، وبراعة أو خيبة المدرب، واللاعب الجديد الذي اشتراه النادي وقد تحول كل منهم إلى مستكاوي جديد، ومعلق فَشَر الكابتن لطيف الله يرحمه، فيلتهوا عن تشكيل حكومة جديدة وزرائها أجهل من الدواب، أو قرارات سياسية أصدرها عبقري تزيدنا جوعاً وفقراً، أو غلق المعابر والأنفاق في وجوه أهلنا في غزه وتصديق إعلام الطبل والزمامير بأنهم عصابة ومجرمون.. لأن آفة حارتنا النسيان.

كان لي عمّة رحمها الله نظرت إلى كتاكيتها في ذات يوم فرأت أحدهم يعرج، والثاني مطأطأ الرأس يمشى خطوة وينكب

على وجه خطوتين، والثالث منحول الريش ويلهث كأنه في الرمق الأخير، والباقي على نفس الحال فقالت بحسرة: «يا لهوى، مالكم عاملين زيّ أنفار كامبورس كده ليه؟»، وأغلب الظن أن كلمة كامبورس هي تاتش مصري لكلمة كامب موريس، ويبدو أن أنفار هذا الكامب أو العمال كانوا من المرضى، أو من ذويّ الإعاقة، ولا أعرف من يكون موريس هذا ولكن على ما يبدو أن هذه القصة تضرب في التاريخ إلى الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن الماضي عندما كان للإنجليز معسكرات في مصر يُطلق على الواحد منها اسم كامب، كما لا أعرف لماذا كلما شاهدت مباراة بين الفرق المصرية أو حتى مباراة يخوضها المنتخب المصري لكرة القدم خاصة بعد العام ٢٠١٠ فإنني أتذكر على الفور هذه القصة؟ فأرى جميع اللاعبين على الشاشة.. أنفار كامبورس، ويبدو أن تدني مستوى الكرة في مصر هو ما دفع المصريين – خصوصاً الشباب – إلى نوع آخر من الانتماء.. نوع غريب وانتماء أغرب، فنغمة أهلاوي وزملكاوي أصبحت

دقة قديمة، والنغمة الجديدة هي مانشتراوي (نسبة إلى فريق مانشتر الإنجليزي)، أو ريال مدريداوي (نسبة إلى فريق ريال مدريد البرتغالى)، أو يوفينتساوي (نسبة إلى فريق يوفينتوس الإيطالى)، يعني المصريون أصبحت لهم انتماءات أوروبية! وليس في الأمر غرابة إذا عُرف السبب، فالمُغرم بالمهرجانات الشعبية ويسمعها بسلطنة كأنه يسمع أم كلثوم في زمانها يتمنى أن يظهر في صورة مثقف منفتح على ثقافات أوروبا فيرمي نفسه في بحر التلاهي الكروي، أو يلبس جينز مهلهل ونظارة ريبان مُقلدة ثمنها خمسة جنيهات من العتبة، أو يكتب فرانكو لأن القصة ببساطة هى تعويض عقد النقص وتكييف الدماغ بالمخدرات، وكما قلنا فإن الكيوف أنواع، والمخدرات أنواع، والتلاهي أنواع، والقرطاس اللي خايف يواجه الدنيا لازم يهرب للكيف.. لتشجيع فريق أجنبي لأن الفريق المصري أصبح زيّ كتاكيت عمتي الله يرحمها لمّا تقع كمان في المسقة في شهر طوبة علشان يبقى باب الحزين معلّم بطين، أو للكتابة بالفرنكو بدل ما يروح يتعلم لغة غير لغة الكيمي

كيمي كا، أو يلبس هلاهيل باسم الموضه أغلبها من وكالة البلح ويعمل فيها حسن زعبولة ماشي يتسلى بدل ما يلبس جلده وجلد بلده وجلد أهله وجدوده، وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

باختصار أصبح جل الاهتمام منصباً على المظهر حتى في الألقاب، فالذي يلهث في طريق التعليم حتى منتهاه لا يبغي العلم ولكنه يريد حرفاً واحداً أو اثنين من بحر العلم هما حرف (د) ليكون الدكتور فلان، أو حرف (م) ليكون الباشمهندس فلان، أو يعفي لحته ليكون الشيخ فلان، أو يرتدي ملابس رياضية ليكون الكابتن فلان، أو يكتب اسمه على صفحات التواصل مسبوقاً بلقب الشاعر، أو الروائي، أو الأديب، فإذا وصفت نفسك بهذه الوصوف، فماذا تركت لي إن أردت إضافة صفة لك؟ هل سمعت يوماً أحداً يقول: الأديب العقاد؟ أو الروائي نجيب محفوظ؟ أو الباشمهندس نيوتن؟ بالطبع لا.. لأن اللقب لا يضيف لصاحبه بل العكس هو الصحيح، الجوهر هو ما يضيف إلى الإنسانية، هو لب التقدم، هو خلافة

الله في أرضه، وإذا كنا جميعاً أنفار كامبورس فلماذا نتعالى على بعضناً بمظاهر اجتماعية واستهلاكية وألقاب لا تقدم ولا تؤخر، فما يبقى للإنسان على الأرض هو ما أضاف للبشرية وليس ما أخذ منها، ونصيحة مني.. حضرتك ممكن تسمي نفسك على صفحات التواصل الشاعر الكبير فلان، أو الكاتب الجهبز اللي ملوش زي فلان، أو الأديب الأريب العبقري فريد عصره فلان.

اشمعنى العباسيين والمماليك كانوا يسمون أنفسهم.. الملك الظاهر القاهر الظافر نجم الدين المعز لدين الله المنتصر بأمر الله حسبى الله ونعم الوكيل فلان الفلاني؟

فكر فيها كده..

• • •

فيس لوك . . لوك

في سنة ٢٠٠٤ استطاع شاب اسمه مارك زوكربيرج ابتكار موقع شبكة اجتماعية أصبح أشهر من فهمي الفيشاوي فتوة الجمالية في القرن الثامن عشر[٢٤]، وهو موقع فيس بوك.. طبعاً الكلام السابق هو معلومة يعرفها الجميع باستثناء أصحابنا الذين يستعملون الفيس بوك بأعتباره أحد موجودات الطبيعة كالماء والهواء، أو كأنه أحسن اختراع بعد لمبة الجاز، أو كأنه شارع الهرم الديجيتال، لكن الحقيقة أنها ليست معلومة

(٢٤) كان لفهمي الفيشاوي مكان يجتمع فيه مع أعوانه، فأصبح هذا المكان علماً من أعلام القاهرة وهو مقهى الفيشاوي بالحسين، حيث أصبح ملتقى الأدباء والفنانين وحتى الثوار في زمن الاحتلال الإنجليزي.

صحيحة.. فهي مجرد هجص لأن الجدع اليهودي اللي اسمه مارك زوكربيرج لطش الفكرة من مجموعة من زملاؤه في جامعة هارفارد[٢٥]، وأظن — وبعض الظن أثم - أنه بيضرب نفسه في اليوم عشرين جزمه قديمة، ليس لأنه اضطر لدفع تعويضات لأصحاب الفكرة بالملايين فهو ما شاء الله أصبح ملياردير وبياكل حمام وفراخ، ومش بعيد يكون بيشرب ريدبول اللي بـ١٨ جنيه كل يوم، لكن لأنه أدخل اللغة العربية للفيس بوك فاستعمله العرب بشكل عام، والمصريين بشكل خاص كأنه بير مسعود في الإسكندرية، شخلل جيبك أرمي العملة المعدنية وغمض عنيك وأحلم وأحلام سعادتك أوامر، ومثلما كانت تقول سامية الإتربي الله يرحمها في مقدمة برنامج حكاوي القهاوي.. «القهوة عالم بحاله قايم.. فيه اللي قاعد جنب اللي هايم.. وفيه تلاهي وفيه عبر، وفيه تلاقي كل البشر»،

(٢٥) في عام ٢٠٠٤ قامت شركة «كونكت يو» التي أسسها مجموعة من أصدقاء زوكربيرغ برفع دعوى قضائية ضد موقع الفيس بوك، حيث ذكرت الشركة أن زوكربيرغ قد أخل بعقد شفوي تم بينهم بشأن تأسيس الفيس بوك، وأنه قام بسرقة الأفكار التي وضعوها حول الموقع، واستخدم الكود الرئيسي الخاص بهم، وقد توصلت الأطراف المتنازعة إلى اتفاق تسوية سري في شهر فبراير من عام ٢٠٠٨ بقيمة ٦٥ مليون دولار.

فعلى الفيس بوك تلاقي كل المخلوقات، من الملائكة وأنت نازل لغاية البشر والبقر، من أصحابنا اللي قلبوا صفحاتهم مساجد وكنائس وملئوها مواعظ وأحاديث وآيات حتى أصبح ينطبق عليها المثل القائل: «أمشي في جنازة ولا تمشي في جوازه»، لأنك في الجنازة مؤكد سوف تذكر الله، وتَعتبر بالموت إلا لو كنت عديم الدم وماشي في الجنازة علشان تبصبص للستات اللي لابسة أسود سوارية وبتعيط من غير دموع، دا أنت تبقى أوطى من الموس على السيراميك، المهم صفحات أصحابنا حاملي مفاتيح بيت العفة والفضيلة هي كما الجنازات، وأصحابها هم ملائكة يبتغون وجه الله لكن بشرط ألا يكتب في نهاية البوست.. (انشرها ولك الأجر)، أو (أقسم بالله أن أنشرها.. أوعي تنسى أنت حلفت)، أو (أستحلفك بالله أن تضغط لايك وشير)، فإذا رأيت أمثال هذه الجمل فأعلم أن صاحبنا هو نفسه اللي كان ماشي في الجنازة علشان يبصبص للستات، ولو كان صاحب الحساب بنت أعرف أنها هي اللي كانت لابسة أسود وماشية في

الجنازة بتعيط من غير دموع.

وعلى النقيض أصحابنا اللي قلبوا الفيس بوك شقق دعارة، والدفع بكروت الاتصالات، خربش الكارت يطلع لك العفريت، تلاقي واحدة عبارة عن بقرة قلعت (البامبز) اللي اخترعه الفنان محمد صبحي في مسلسل رحلة المليون- وهو غير البامبرز بتاع الأطفال- متصورة شبه عارية بتقلد ناعومي كامبل، أو هوليا، أو ريتا هيوارث في عزهم، والثانية اللي شبه فردة الشراب المقلوب وعاملة فيها كاميرون دياز، أو جوليا روبرت، أما البنات الأرقى.. فربنا يهدي، ويشفيهم من مرض اسمه السلفي، ومد البوز في الصورة السيلفي وكأنها بتقول: «أنا أنا أنا أبريق الشاي.. إيدي كده، وبوزي كده.. أصب الشاي وأرجع كده»، وبدون شك هي بتصب الشاي لقرطاس يشحن رصيد للبقرة العارية، أو يتغزل في البوز الممدود كأنه خرطوم مطافي.

أما الكوم الكبير فهو ست الدار، نوآرة الحتة، أبلة نظيرة اللي نقلت مطبخها لصفحتها الشخصية لدرجة إنك لو كنت

مغامر وصعدت جبل من جبال القمامة في أي شارع كأنك صاعد لقمة إفيرست، وفتشت في الأكياس السوداء فسوف تقول بكل ثقة ويقين: «الكيس ده فيه أعواد ملوخية، وأمعاء أرنب.. يبقى بتاع الست أم سحلول، والكيس ده فيه ريش فراخ وريحة القرفة طالعة منه يبقى بتاع الست أم مبلول، والكيس ده فيه حلة محشى يبقى بتاع الست مرات دلدول اللي عملت محشي وصورته قبل ما يتحرق ويترمى في الزبالة». وصاحبتنا اللي حياتها ليست ساعة بساعة – كما قال مروان خوري – ولكن دقيقة بدقيقة على الفيس بوك لدرجة أن صديقتها لو عاوزه تعمل لها عمل هتكون عارفة هي قلعت اللامؤخذه فين.

وأخينا الخبير الاستراتيجي والمحلل السياسى، الإخواني بتاع رابعة الصمود ومرسي راجع إلى قصر الرئاسة على سندس وأستبرق، وغريمة النحّات الذي صنع من السيسي تمثال الزعيم المُلهم، والمختار، وطبيب الفلاسفة، ومعارك، وقيل وقال، ولوك لوك لا ينتهي في حلقة مفرغة.

في الواقع أن كل ما سبق لا ينافي طبيعة الموقع فهو للتواصل الاجتماعي بين الناس، ولكن الله تعالى خلق كل شيء بقدر وأحسن تقديره، والكثير من أي شيء ضار، فالحكمة والموعظة، والأفكار السياسية والحياتية والاجتماعية وكل الممارسات على الفيس بوك هي مثل رغيف خبر تعطيه لجائع، هذا الرغيف له قيمة كبيرة لكنك لو أعطيته طاولة كاملة فسوف يفقد الرغيف قيمته، فالعطاء لابد أن يكون بقَدَر، والشخص الثرثار الذي يتحدث طوال الوقت دون توقف هو شخص مريض، مدمن كلام، فالعقل له باب واحد إما أن تسمع فتتعلم أو تتكلم فتثرثر، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لخصّ هذه المسئلة بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(٢٦).

الفيس بوك أصبح مرض اجتماعي وليس تواصل اجتماعي، ولو علم الجدع اللي اسمه مارك زوكربيرج أنه صنع حياة حافلة يعيشها القراطيس ويُفضلونها على حياتهم الواقعية فلن يضرب

(٢٦) رواه البخاري ومسلم.

نفسه في اليوم عشرين جزمه قديمة، ولكن لرقص سامبا وروميا وتويست وعشرة بلدي ابتهاجاً بصنيعه الجهنمي، ورغم أني أعلم بأنك قد تجد في التاريخ طرح ممل إلا أني لا أجد خير منه كاشفاً لجذور الشجرة، حتى إن رأيناها عطنة فلا نتوقع أن تكون الثمرة يانعة، وتلك هي إحدى فوائد التاريخ.. استقراء الحاضر والمستقبل، فتعالى معي نعود بالزمن إلى الوراء كالعادة.. إلى سنة ١٩٤٦ عندما نشر كاتب أمريكي اسمه لينستر موراي قصة قصيرة بعنوان A Logic Named Joe ..كمبيوتر اسمه جو[٢٧]، في هذه القصة تنبأ موراي بأن أجهزة الكمبيوتر في كل منزل في العالم وترتبط ببعضها من خلال كمبيوتر مركزي، أي تنبأ بالإنترنت لكنه أخطأ في موضوع الكمبيوتر المركزي لأن الإنترنت لا يتحكم بها كمبيوتر مركزي، لا يُديرها أحد، ولا يملكها أحد. وبعد قصة موراي والتي لم ينتبه لها الناس في حينها كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت، ودخل العالم في حرب أخري بين القوتين

(٢٧) في ذلك الزمن كانت أجهزة الكمبيوتر تسمى (منطق) Logic

الرئيسيتين في ذلك الوقت وهما الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة عُرفت إعلامياً بالحرب الباردة، ورغم أن الولايات المتحدة والأتحاد السوفيتي كانا حلفاء في الحرب العالمية الثانية ضد قوات المحور إلا أنهما اختلفا بعد الحرب ودخلا في صراع لم يكن مسلحاً ودون إعلان الحرب حيث سعت الولايات المتحدة لاستأصال الشيوعية خاصة في أوروبا الغربية والشرق الأوسط بينما دعم الاتحاد السوفيتي الحركات الشيوعية خاصة في شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق أسيا، وحدثت العديد من الأزمات بين الدولتين مثل أزمة حصار برلين، والحرب الكورية، وحرب فيتنام، والغزو السوفيتي لأفغانستان، وأزمة الصواريخ الكوبية.. هذه الأزمات كانت تضع البلدين على شفى مواجهات مسلحة وهو ما يعني الدمار الشامل بسبب الأسلحة النووية، والقنابل الذرية.

المهم أن وزارة الدفاع الأمريكية بدأت تعمل بافتراض وقوع كارثة نووية وما ينتج عن هذه الكارثة خاصة في مجال الاتصالات، وكلفت مجموعة من الباحثين بدراسة إمكانية

تصميم شبكة تظل تعمل حتى في حالة وقوع تلك الكارثة، ومن هنا بدأت الفكرة التي جعلت من العالم قرية صغيرة، فكرة شبكة اتصالات ليس لها مركز تحكم رئيسي، وبالفعل أسس الباحثين شبكة أُطلق عليها اسم ARPANET، وكانت عبارة عن أربعة أجهزة كمبيوتر مترابطة معاً عن طريق كابلات التليفون، ثم جعلت وزارة الدفاع هذه الشبكة متاحة لبعض المراكز العلمية والجامعات لإجراء الأبحاث حول إمكانية تطويرها وبالفعل تطورت ولكن ظل هذا المشروع غير معروف حتى عام ١٩٨٠، وحين خرج للنور بدأ التطور يتسارع، وبعد ثلاث سنوات انقسمت ARPANET إلي شبكتين الأولى بنفس الاسم وأُتيحت للأبحاث المدنية والثانية باسم MILNET وظلت مقصورة على الاستخدامات العسكرية لوزارة الدفاع.

وفي عام ١٩٨٦ قامت مؤسسة العلوم الوطنية بعمل شبكة باسم NSFNET استطاعت من خلالها ربط الباحثين في جميع أرجاء الولايات المتحدة عن طريق خمسة أجهزة كمبيوتر

عملاقة واعتبرت هذه الشبكة العمود الفقري للإنترنت التي أخذت تتوسع، ففي عام ١٩٩٦ كان عدد الأجهزة المتصلة عن طريقها يقدر بحوالي خمسة ملايين كمبيوتر، وفي العام التالي ١٩٩٧ كانوا ١٦ مليون، وفي العام التالي ١٩٩٨ وصل العدد إلى ٥٠ مليون.

هل لاحظت التسارع في نمو الشبكة؟ ليست هذه هي الملاحظة المهمة، ولكن هناك ملاحظة أهم نكتشفها عند ربط تاريخ الشبكة منذ زمن الحرب الباردة وحتى الآن بتاريخ المنطقة العربية، ففي الزمن الذي كان العالم المتقدم يصنع الإنترنت ويطور أجهزة الكمبيوتر وأنظمة التشغيل كنا نحن غارقون في الصراع الصهيوني، واحتلال فلسطين، وتحول مصر من دولة مدينة لدولة عسكرية، والعدوان الثلاثي، والثورة الجزائرية، والنكسة، وحرب أكتوبر، ومبادرات، ومفاوضات، وكامب ديفيد، والمد الإرهابي، والمد الرأسمالى للانفتاح، وقضية طابا، وحرب العراق وإيران، وغزو الكويت، وانقسام السودان، وانهيار سوريا، والهجرة، والتضخم، والحريات.. وهلم

جرا، كنا ولازلنا غارقين في مشاكل وصراعات لا ولم تنتهي وبالتالى أصبحنا مستهلكين فقط للتكنولوجيا التي لم نساهم في صناعتها أو تطويرها، نتعامل مع الإنترنت باعتبارها فريسة ونحن غافلون أن الصياد هو الفريسة، أن الفيس بوك تحول على أيدينا إلى فيس لوك لوك يسرق الوقت ويقضي على التواصل الاجتماعي بين البشر بحجة التواصل الاجتماعي مع أشباح.

• • •

بالشقاء والبنين

زمان كان فيه إعلان ظريف في التليفزيون المصري عن محل موبيليات، الإعلان عبارة عن حوار رسوم متحركة بين شخصين، الأول يقول وهو متأثر وحزين: «هيجوزوني!»، ويرد عليه التاني: «وفيها إيه يعني؟»، ثم يكشف الأول أن سبب حزنه.. «هأجيب جهازي منين؟»، وتنحل المشكلة بأن: «عندك جهاز العروسين.. عبد الرحيم عمرو.. إذن فأحتكم الأمر»

كان إعلان مستفز جداً لكنه كان ناجح جداً بدليل أن عمره أكثر من ٢٠ أو ٢٥ سنة ولازال يعيش في الذاكرة

شأنه شأن إعلان كوفارتينا ع العريس، وإعلان موبيلا كاربت سيتي.. محمود إيه ده يا محمود، وإعلان مطبخ قبنوري، وعبد الستار وجولد ستار، وإعلان لاكتويل I Like it، وغيرها من إعلانات التليفزيون المصري في التسعينات. كانت مصر لاتزال متأثرة بالانفتاح الاقتصادي وبالتليفزيون الذي أصبح واقعاً حياً في كل بيت ليطغى نوره على بريق وسحر الإذاعة، ولم يكن التليفزيون أداة إعلامية خطيرة فقط، بل كان أداة إعلانية أخطر سواء الإعلان المباشر أو غير المباشر، ولكل منهما قصة.

فالإعلان ببساطة هو عملية لفت الانتباه لمنتج معين عن طريق شرح مميزاته، وفوائده، وليس للإعلان مكان في ظل الاحتكار، فعندما كانت موبينيل هي شركة الاتصالات الوحيدة في مصر كانت إعلاناتها عبارة عن خلق سوق جديد من خلال تعريف الناس بفوائد الموبايل الذي يجعلك متواصل مع أهلك وأصحابك وأحبائك في كل وقت وكل مكان.. (فوق الجبال، تحت السحاب، وفي كل لحظة تمر

بينا في الحياة)، وعندما دخلت شركة كليك التي أصبحت فيما بعد فودافون، تغيرت لهجة الإعلان لتصبح استعراض لمميزات الشركة وشبكتها القوية.. (وما تخفش معانا أنت متغطي)، ناهيك طبعاً عن أسلوب رسائل التذكير بمواعيد دفع الاشتراك والتي كانت في ظل الاحتكار.. «ادفع بالتي هي أحسن وإلا هانشيل العدة»، وفي ظل المنافسة أصبحت تبدأ بـ «عزيزي العميل من فضلك لو سمحت» .. نزل إيدك تحت.

أما الإعلان غير المباشر فله معنا مثال وقصة ظريفة، ففي أواخر التسعينات كان التليفزيون المصرى قد أصبح سبع قنوات هي الأولى والثانية والثالثة في القاهرة، والرابعة في الاسماعيلية وتبث لمنطقة القناة وشرق الدلتا، والخامسة في الإسكندرية وتبث للإسكندرية ومطروح والبحيرة، والسادسة في مدينة طنطا وتبث للدلتا وغربها، والسابعة في المنيا وتبث للصعيد، وكان للقناة الخامسة رونق خاص فكانت شبابية مرحة وواعية أيضاً تُدار بفكر إعلامي محترم حين كان يرئسها الأستاذ وائل

عبد المجيد، قبل أن تتولى رئاستها الأستاذة هدى مصطفى وتتحول القناة لقمة السفة والتفاهة، كان من ضمن برامجها برنامج ذو شعبية عالية اسمه (طلباتك إيه؟)، وكان عبارة عن تلقى اتصالات من المشاهدين والدردشة معهم في مواضيع مختلفة وفي نهاية الاتصال يطلب المشاهد المتصل عرض أغنية أو جزء من مادة درامية، وفي إحدى الحلقات وفي وسط الدردشة قالت المتصلة لمقدمة البرنامج: «أنا لسه راجعة من جروبسا»، وسألتها مقدمة البرنامج: «إيه جروبسا دي؟»، الست المتصلة قالت لها أنتِ ازاي اسكندرانية وما تعرفيش محلات جروبسا؟ وهات يا رغي على جروبسا ومحلات جروبسا وحلاوة جروبسا وجبنة جروبسا، وفي الحلقة اللي بعدها تكرر نفس الحوار من متصلة أخرى.. وخد على كده أربع أو خمس حلقات لغاية جروبسا ما أصبحت أشهر من قلعة قايتباي، وعامود السواري، وتمثال عروسة البحر.. وكان هذا عبارة عن مثال صارخ للقرطسة، فإما كانت مقدمة البرنامج بتقرطس القناة، أو كانت هي والقناة بيقرطسوا المشاهدين باتصالات

من داخل الاستوديو، وهو نفس ما يحدث حالياً بقنوات غير مهنية لكن هذه المرة ليس لصالح إعلان تجارى وإنما لصالح إعلان سياسي لتوجيه الرأي العام أو تأليبه، وبالتالى تحول الإعلان لفن هدفه خلق قالب من الفكر الموجه لحشد الرأي العام إلى أن هذا الدستور – على سبيل المثال – هو أحسن دستور عرفته الإنسانية، أو أن هذا المرشح لا يصلح لقيادة دولة إسلامية لأنه لا يحمد الله بعد العطس، أو أن ما حدث في الثلاثين من يونيو هو ثورة.. أو انقلاب، باختصار قرطسة عقول الناس والتفكير والاختيار نيابة عنهم.

ونرجع لصاحبنا اللي هيجوزوه ومشكلته هايجيب جهازه منين؟ وكأن دمياط اتحذفت من على خريطة مصر، وكأن كل النجارين قبض عليهم الوالى العثماني وشحنهم على استنبول وفرصته الأخيرة هي محلات عبد الرحيم عمرو، وكانت نقلة نوعية في فن الإعلان من احترام المشاهد إلى قرطسته، يعني تحول من عرض منتج لخلق احتياج، يعني الناس زمان كانت

عايشة على لمبة الجاز ومفيش حد فيهم مات ناقص عمر، دلوقتي لازم لمبات موفرة وإلا الدنيا تضلم في وشك، الناس كانت بتشرب من القلة، والستات كانت بتغسل الملابس والأطباق على أيديهم في الطشت، وبتطبخ على وابور الجاز ومفيش حد فيهم أصابه صرع أو شلل أو مات من الجوع، النهاردة لازم التلاجة كريازي عشروميت قدم وإلا هتموت من العطش، والغسالة يونيفرسال فول اتوماتيك وإلا الملابس هاتفضل متسخة، والبتوجاز أبو سبعة شعلة وإلا هتموت من الجوع، لازم سمنة روابي وإلا جوزكِ هايتجوز عليكِ، وغسالة الأطباق، والمطبخ الألوميتال، والتكييف، والنجف، والسجاد، والنيش.. أوعى تنسى النيش، والطقم المدهب، وغرفة نوم للأطفال، والمدرسة الخاصة، وأكل القطة بوسي والكلب رعد، وكلها مظاهر استهلاكية لمجتمع استهلاكي نجح الإعلان في خلق اجتياجات له من لا شيء، يعني لازم شيكولاته كابوري، ومعجون أسنان سيجنال، وكريم شعر هير كود، وسيلك أبيل لإزالة الشعر وكأن البتاعة اللي بتلزق دي..

كفرت. الإعلان قدر يلعب بمشاعر مجتمع مراهق ويقنعة بأن لو عربيتك BMW الناس هاتحترمك، والمشكلة الناس فعلاً بتحترمه حتى لو كان قوّاد، رغم أن في المجتمعات الناضجة أصحاب الملايين ممكن تلاقيهم راكبين بسكلته عادي يعني. أما بالنسبة للزواج.. فالأسرة تبحث لبناتها عن عريس يدفع مهر ويجيب شبكة وشقة وعفش ونيش.. مش قلتلك أوعى تنسى النيش، والعريس يبحث عن عروسة عذراء شقراء هيفاء نجلاء متدينة تساهم في مصروف البيت، يعني باختصار عيان بيعمل مش عارف إيه في ميت، أو كما يقول المثل الشعبي «طمعنجي بناله بيت.. فلسنجي سكنله فيه»، ودوخيني يا لمونة.. البنت من سن المراهقة تلبس عرض تضاريس وتعمل سمكره كل يوم في وشها وتدهن دواخل علشان تقرطس عريس، والشاب يقرطسها بكام اسطوانة مشروخة عن الحب والغرام وعش الزوجية وياخد اللي هو عاوزه.. واللي بعدها واللي بعدها، ولمّا يفكر في الزواج يقرطس واحدة خام بدون تجارب ويكتشف بعد كده أنها قرطسته وكانت دايرة ومثلث

ومربع على حل شعرها، يعني حضرته يكون خاربها ومقطع السمكة وديلها وعاوز عروسة خام! طيب إزاي يا موكوس يا متعوس وربنا اسمه العدل؟

تعالى أقولك نصيحة.. الزواج هو أفشل نظام اجتماعي لأنك بمجرد ما تستطيع الوقوف على قدمك وتنتهي من التعليم وتنسى ما تعلمته طبعاً وترمي بالشهادة في أي درج، وتنتهي فترة التجنيد وربنا يكرمك وتلاقي شغل وبالعافية تقدر تصرف على نفسك.. بمجرد أن تحدث لك تلك المعجزات تفكر في الزواج، تروح تجيب واحدة لا هي أمك ولا أختك علشان تصرف عليها، وتجيب منها عيال لا كانوا من قرايبك ولا عمرك عرفتهم وتصرف عليهم هم كمان، طيب ليه يا ابني هو أنت غاوي شقى، يعني هو أهل الشقى يا رب شقيهم.. يسيبوا الشقى والشقى ماسك فيهم؟ خليك حر نفسك وعيش حياتك لنفسك طول وعرض.

طبعاً الفقرة السابقة واضح جداً أنها تهريج، لأن الزواج هو ناموس من نواميس الله في كونه العظيم، شركة لابد لها من

تأسيس جيد، يعني اتقى الله في بنات الناس علشان أولاد الناس يتقوا الله في زوجتك المستقبلية، ويا سيدي بعد الزواج ابقى روح اتسرمح براحتك المهم تكون ضمنت حقك في زواج مستقر، وتجيب للدنيا كام قرطاس صغير.. وبالشقاء والبنين إن شاء الله.

• • •

وختاماً

قد تختلف أو تتفق مع بعض أو كل ما سبق وهذا حقك فالاختلاف سنّة كونية لأن الله تعالى لم يخلق عقولنا على قالب واحد، فما عرضت إلا أفكاري إن تتفق معها فبها ونعمت، أو تختلف معها فعلى الرحب والسعة لأن الحياة نفسها رحبة لكن عقولنا تجعل منها زنزانة خانقة لمجموعة من الأفكار الجاهزة، ولهذا أقولها بكل صدق وأنا رجل عجوز بيني وبين قبري شبر ضيق.. لا تسمح لأحد أن يجعل منك قرطاس، شُكَّ في كل شيء يُقال لك، فكر في كل شيء حتى

لو كان البشر قتلوه تفكيراً وبحثاً، فالشك هو أولى خطوات اليقين أو على الأقل هو مالا يجعلك تفقد إنسانيتك.

ولا تظن بأني خدعتك – أيها القاريء الكريم – واستخدمت عبارة للكبار فقط كعامل جذب، ولا تظن أني خدعتك مرة أخرى بإدراج الكتاب تحت طائفة الأدب الساخر، لا هذه ولا تلك خدعة بقدر ما هي مناورة، فقد قصدت أن أقول (أنا) ما أريد قوله بالطريقة التي تحبها (أنت)، ولا يعني منهج السخرية الذي انتهجته أني أسخر من أحدٍ بصفته وشخصه، أو من مجتمعنا بفصه ونصه ولكني أنتقد أنماطاً شخصية، وأساليب تفكير، وتصرفات أصبحت مثل الأورام الخبيثة لا يكاد يسلم منها أحد مهما بلغ من الوعي والفهم وإدراك الأمور. فكل ما سبق ما هو إلا لفت انتباه – لنفسي قبل أن يكون لأحد – لأخطاء نرتكبها بقصد أو بدون قصد، وليس سخرية من أحد، وجميع المعلومات الواردة أعلاه قمت

بالتحقق منها مراراً وتكراراً فما كان من توفيق فهو من الله وحده، وما كان من خطأ أو لبس أو نسيان فمن نفسي.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

تم بعون الله

الفهرست

أدخل برجلك اليمين ٨
مبروك جالك قرطاس ١٧
حصوة ملح ٢٤
تاتا خطّي الشبكة ٣٤
بلد بتاعة شهادات صحيح ٤١
كُلّ فول وصلِ على الرسول ٤٩
كوز المحبة اتخرم ٥٨
أبو رجل مسلوخة ٦٤
مدد يا سيدي العريان ٧١
الكفيل المصري ٧٨
ستديو سوق العبور ٨٦
الشيخ شوباش سلفى ستايل ٩٣

بركة يا جامع ١٠٠
أنفار كامبورس ١١٠
فيس لوك لوك ١١٨
بالشقاء والبنين ١٢٩

• • •

للتواصل مع المؤلف ..

E-mail:

Egyhant@gmail.com

Facebook:
www.facebook.com/egyhant

Goodreads:
www.goodreads.com/egyhant

مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي

نَسب المُصنَّف - غير تجاري - الترخيص بالمثل ٤,٠ دولي

www.creativecommons.org/licenses/by-nc-sa/4.0/deed.ar

عالم
قراطيس .. قراطيس

هذا الكتاب ..

هو مجرد دردشة مصرية استناداً إلى فرضية أن الله تعالى خلق المصريون من عجينة غير تلك التي خلق منها باقي شعوب الأرض، فلهم قدرة عجيبة على خلق الضحكات وسط المآسي والهموم، عندهم دائماً الدنيا خير خير، عندهم دائماً القفشة حكمت، ربما لأنهم تعلموا من تاريخهم الطويل وصراعهم مع قوى القهر والإظلام أن أفضل سلاح لمواجهة هذه القوى هو النكتة والتهكم حتى على أخطائهم التي ارتكبوها بوعي أو بغير وعي.

مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي
نَسب المُصنَّف – غير تجاري – الترخيص بالمثل ٤,٠ دولي

عالم قراطيس قراطيس
دردشة ساخرة للكبار فقط
هاني النجار